سواكن ومكانتها في تجارة البحر الأحمر في العصر الإسلامي
(من القرن ٤هـ/١٠م وحتى بداية القرن ١٠هـ/١٦م)

دكتور
إبراهيم محمد حامد سليمان
أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد– قسم التاريخ الإسلامي
كلية دار العلوم – جامعة المنيا

ملخص البحث:

تأتي هذه الدراسة لتلقي الضوء على المكانة التجارية لسواكن في العصر الإسلامي. والواقع أن تلك المدينة تبوأت مكانة مميزة على الساحل الغربي للبحر الأحمر منذ تأسيسها على يد المهاجرين العرب القادمين من شبه الجزيرة العربية خلال القرن ٤هـ/١٠م. وقد كانت هناك عدة عوامل ساعدت على ما وصلت إليه سواكن من نهضة وازدهار تجاري؛ منها ميناؤها المميز الذي كان محميا من الرياح، كما أنه كان سهل الولوج بالنسبة للسفن، ويمكن الملاحة فيه بسهولة بفضل عمق المياه المناسب. من ناحية أخرى تميزت سواكن ببضائعها المتنوعة والمهمة كالذهب والعاج، وهي منتجات حصلت عليها من بلاد الحبشة وبلاد النوبة ومناجم البحر الأحمر، كما أن قبائل البجه فتحت الطرق البرية أمام التجار القاصدين مدينتهم من اليمن وبلاد الهند، ولازمت القوافل وأمنت طريقها أثناء رحلاتها في المناطق الداخلية. هذا فضلا عن اختفاء المنافس التجاري الأول لها على الساحل وهي مدينة عيذاب، وهو الأمر الذي مكنها خلال القرن ٩هـ/١٥م من أن تصبح المركز الرئيس للتجارة في المنطقة. هذه الأهمية التي كانت تمثلها سواكن جعلت سلاطين المماليك يسعون دائما إلى بسط نفوذهم وسيطرتهم عليها لتأمين طرق التجارة المصرية، كما أن هذه الأهمية جعلت المدينة مطمعا للبرتغاليين، الذين وصلوا لسواحل البحر الأحمر مع بدايات القرن ١٠هـ/١٦م.

الكلمات الافتتاحية: سواكن؛ التجارة؛ البحر الأحمر؛ المماليك؛ البجه

Suakin and its Position in the Red Sea trade during the Islamic era

Abstract:

This study comes to shed light on Suakin's commercial position during the Islamic era. In fact, this city was able to occupy a distinguished position on the western coast of the Red Sea since its founding by Arab immigrants, who came to it from the Arabian Peninsula during the 4th century AH/10th century AD. There were several factors that contributed to Suakin's commercial renaissance and prosperity; First, there is its distinguished port, which was protected from the winds, and it was easy to access for ships, and it could be navigated easily thanks to the appropriate depth of water. On the other hand, Suakin was distinguished by its diverse and important goods such as gold and ivory, which are products obtained from the countries of Abyssinia, Nubia, and the mines of the Red Sea. The Beja tribes also opened land routes to merchants coming to their city from Yemen and India, and they also escorted the caravans and secured their way during their trips in interior areas. On the other hand, during the 9th century AH / 15th century AD, the first commercial competitor to Suakin on the coast, the city of Aydab, disappeared, which enabled Suakin to become the main center of trade in the region. This importance, which was represented by Suakin, made the Mamluk sultans always seek to extend their influence and control over it to secure the Egyptian trade routes, and this importance also made the city a target for the Portuguese, who reached the coasts of the Red Sea at the beginning of the 10th century AH / 16th AD.

Keywords:

Suakin (Sawakin) – Commerce – Red Sea – Mamluks - Beja

المقدمة:

تعد سواكن واحدة من المدن ذات التاريخ والحضارة على الساحل الغربي للبحر الأحمر. ورغم أن موقع المدينة كان معروفا منذ القدم للفراعنة والبطالمة، إلا أن نشأة وظهور سواكن بمسماها الحالي، إنما يعود الفضل فيه إلى الجاليات العربية المسلمة التي وفدت إلى هذه المنطقة من شبه الجزيرة العربية، ونجحت في تأسيس مدينة تمكنت خلال فترة قصيرة من أن تحقق نهضة كبيرة بفضل تجارتها المزدهرة.

وفي الواقع لعبت سواكن دورا تجاريا مهما خلال العصر الإسلامي؛ فقد كان ميناؤها ذا أهمية استراتيجية في تجارة البحر الأحمر، كما أنه كان بمثابة بوتقة انصهرت فيها ثقافات الشعوب المختلفة، ونقطة اتصال بين إفريقيا والشرق الأوسط وأوروبا؛ فميناء هذه المدينة كان هو المنفذ الرئيس على البحر الأحمر لبلاد السودان والحبشة والمناطق الأفريقية الداخلية، بل وفي بعض الفترات لمصر المملوكية، وأصبح منذ القرن ٤هـ/١٠م إحدى النقاط الرئيسة في شبكة التجارة الإقليمية. ثم نجحت سواكن في أن تصبح المركز التجاري والملاحي الأهم على الساحل الغربي للبحر الأحمر خلال القرن ٩هـ/١٥م، وذلك بعد الانهيار والخراب الذي لحق بميناء عيذاب– الميناء الأكثر أهمية في المنطقة حتى ذلك الوقت– ومن ثم تحول الثقل التجاري إلى ميناء سواكن، الذي أصبح من الآن فصاعدا المحطة الرئيسة للقوافل التجارية المصرية على هذا الساحل. كما أن الموقع المميز لهذه الجزيرة في مواجهة بلاد الحجاز جعلها تقوم كذلك بدور مهم في رحلات الحجاج القادمين من بلاد السودان والمتوجهين إلى الأراضي الحجازية.

انطلاقا مما سبق، تأتي هذه الدراسة لإلقاء مزيدا من الضوء على مكانة سواكن الإسلامية في تجارة البحر الأحمر منذ القرن ٤هـ/١٠م (وهو تاريخ نشأتها على الأرجح) وحتى بدايات القرن ١٠هـ/١٦م، وهذا التاريخ الأخير ارتبط بالتحولات السياسية الكبيرة التي حدثت في المنطقة، والتي على إثرها انتقلت سواكن من حقبة النفوذ المملوكي إلى مرحلة التبعية العثمانية. وقد جاءت المادة العلمية لهذه الدراسة مستقاة في أغلبها من مصادر أولية مثل الآثار والحفريات التي تمت في سواكن مع بدايات القرن الحادي والعشرين، بالإضافة إلى المعلومات التي وردت في وثائق الجنيزة عن تجارة وأنشطة الكارمية في المدينة، هذا فضلا عن مرويات المؤرخين العرب والبرتغاليين المعاصرين، ووصفهم للمدينة ولميناؤها ولأنشطتها التجارية.

وجاء البحث مشتملا على أربعة محاور: **المحور الأول** أتى كاشفا للروايات التي ذكرت حول تأسيس المدينة، مبينا أصل الكلمة التي اشتق منها اسم سواكن، وأهم الأساطير التي ذكرت حول نشأتها، ثم الحديث عن وصول الهجرات العربية إلى هذا المكان. أما **المحور الثاني** فيتعرض لموقع سواكن المميز، الذي منحها كثيرا من الأهمية التجارية، وذلك من خلال ذكر الأوصاف التي أوردها الجغرافيون والمؤرخون العرب عن هذه المدينة. وجاء **المحور الثالث**– وهو الأكثر أهمية– ليتناول الدور الذي لعبته سواكن في تجارة البحر الأحمر بوصفها محطة رئيسة للسفن القادمة من بلاد الهند واليمن والمتوجهة إلى البلاد المصرية، وقد اشتمل هذا المحور على عدة عناصر منها: *تجارة سواكن من خلال وثائق الجنيزة. *تجارة سواكن وعلاقاتها مع العالم الخارجي من خلال الحفريات والكشوفات الأثرية. *سواكن ترث الأهمية التجارية لميناء عيذاب. *ميناء سواكن. أما **المحور الرابع** والأخير فيأتي لإبراز أهمية سواكن وتجارتها في سياسة سلاطين المماليك، وأهم الخطوات التي قاموا بها من أجل فرض نفوذهم على المدينة. ثم الحديث أخيرا عن أهمية سواكن في المشروع البرتغالي الهادف إلى السيطرة على تجارة البحر الأحمر، والقضاء على تجارة المماليك في المنطقة.

١. نشأة وتأسيس سواكن:

في الواقع هناك العديد من الآراء التي أثيرت حول مسمى "سواكن" وأصل اشتقاقها؛ من أشهرها وأكثرها انتشارا الرأي الذي يذهب إلى القول إنها مشتقة من كلمة "**السوق**"، فيما يرى آخرون أنها مشتقة من الفعل "**سكن**"، ويبدو أن هذا الرأي الأخير له وجاهته، وذلك بالنظر إلى جذور وهجائية الكلمة، التي تشتمل على حرف "الكاف" وليس حرف "القاف" كما هو الحال مع كلمة "سوق". من جهة أخرى، هناك من يرى أن قبائل البجه [١] هي من أطلق على هذا المكان هذه التسمية، وأنها مأخوذة من كلمة في لغتهم– التي تسمى البداويت– وهي "*Esukib*" بمعنى "السوق"، وهذا يعني إعادة الوجاهة للرأي الأول القائل باشتقاقها من كلمة "سوق"، وأن كلمة "سواكن" جاءت مشتقة من اللغتين العربية والبجاوية. مهما يكن من أمر، فإن مسمى "سواكن" لم يظهر للوجود إلا بعد وصول الهجرات العربية إلى هذا المكان، ومن المحتمل كذلك أن العرب هم من عمل على توسيع هذه المستوطنة الصغيرة، وقاموا بالاعتناء بها وتحويلها إلى مركز تجاري، ثم عرف المكان باسم "سوق"، وذلك لقدوم البدو من قبائل المنطقة إلى المدينة للبيع والشراء، أو ربما عرف المكان باسم "مسكن"، بسبب استحسان البدو للسكن فيها بعدما أصبحت وجهة للسفن التجارية. ومن احدى هاتين الكلمتين إذا تم اشتقاق الاسم الذي تعرف به المدينة وهو سواكن [٢].

إلى جانب ذلك، هناك عدد من الروايات المحلية التي تتحدث عن بعض الأساطير المتعلقة بنشأة سواكن وظهورها للوجود، ورغم أن تلك الروايات تبتعد عن الحقيقة والواقع إلا أن كونها أصبحت جزءا من تراث المدينة يدفعنا إلى الإشارة إليها بإيجاز؛ فهناك "قصة الجن أو الأرواح"، ومفادها أن ملك الحبشة كان يرتبط بعلاقات صداقة مع ملك مصر (أو قيل قيصر الروم)، وأن هذا النجاشي قام بإرسال سبع من الفتيات الجميلات العذارى كهدية إلى حاكم مصر صحبة واحد من خصيانه المقربين، وقد مرت السفينة التي تحملهم بجزيرة سواكن (التي كانت آنذاك خالية من السكان وليس فيها إلا الجن)، وظلت بها ليلة ثم انطلقت في الصباح قاصدة وجهتها، وبعد عدة أشهر وصلت هدية النجاشي إلى ملك مصر، الذي تفاجأ لاحقا بحمل تلك الفتيات، وبعد سؤالهن اعترفن بأن هذا الأمر قد تم خلال الليلة التي قضينها في جزيرة سواكن، حيث واقع كل واحدة منهن جني، فصدق هذا الملك روايتهن، وكره إعادتهن لملك الحبشة لأن هذا الأمر يحمل شيئا من الإهانة، وقرر أن يرسل الفتيات– ومعهن الزاد والطعام–

إلى الجزيرة نفسها، حيث تم وضع أطفالهن هناك، ومن هؤلاء الأطفال أتى نسل كل سكان سواكن لاحقا. من هنا أطلق على هذه الجزيرة "سواها جن" أي بناها الجن، أو "سبع جن" نسبة لعددهم، ثم تحول الاسم مع الوقت إلى سواكن [٣]. رواية أخرى تذكر أن ظهور سواكن يعود إلى زمن نبي الله سليمان عليه السلام، الذي قرر نفي وطرد المجرمين والمذنبين من مملكته إلى هذه الجزيرة، التي كان يعتقد أنها تقع في أقصى بقاع العالم آنذاك، لذلك فلن يستطيع هؤلاء المجرمون إلحاق الأذى بأي أحد، من هنا فقد أطلق على هذه الجزيرة اسم "سجون أو سواجن"، ثم قام هؤلاء السجناء (الأهالي) لاحقا- بعدما جعلوا من مدينتهم مستوطنة مزدهرة بفضل التجارة- بتغيير هذا الاسم- الذي يذكرهم بوضاعة أصلهم ويلحق بهم العار- إلى "سكون"، الذي اشتق منه لاحقا اسم "سواكن" [٤].

وقد كان موقع سواكن معروفا منذ القدم، حتى قبل وصول العرب إليها؛ فهناك إشارات إلى أن تلك البقعة من الساحل كانت على عهد الفراعنة تعد جزءا من بلاد بونت *Punt*، وأن ملوك مصر كانوا يرسلون سفنهم إلى سواكن وباضع (مصوع) [٥] للحصول على الذهب والعاج وأخشاب الأبنوس [٦]. كما أن البطالمة- الذين ساروا على خطى الفراعنة- قاموا بإرسال عدة حملات بحرية إلى هذه المناطق، وقد أشاروا إلى هذه المدينة باسم إيفانجيلون *Evangilon Portus*، ويقال إن بطليموس قد أعجب بموقع المدينة وأمر بضمها إلى أملاكه، كما أنه أنشأ فيها محلا تجاريا عظيما جمع فيه حاصلات وبضائع السودان والحبشة. وقد ذكرت تلك البعثة كذلك أن هذا الميناء كان مرتبطا بعلاقات تجارية وثيقة مع أثيوبيا ووادي النيل وسواحل شبه الجزيرة العربية [٧].

مهما يكن من أمر، فإن ظهور سواكن وعلو شأنها ارتبط بوصول الهجرات العربية إليها، بيد أنه ليس لدينا معلومات موثقة عن زمن محدد لوصول تلك الهجرات، وإن كانت هناك بعض الآراء تذهب إلى القول إن هذا الأمر قم تم ما بين القرنين الثاني والرابع الهجريين/الثامن والعاشر الميلاديين [٨]؛ فخلال هذا الوقت وفد إلى سواكن كثير من المهاجرين القادمين من شبه الجزيرة العربية بحثا عن معدن الذهب الذي اشتهرت به، "فكثرت بهم العمارة في البجه، حتى بلغت الرواحل التي تحمل الميرة إليهم من أسوان [٩] ستين ألف راحلة"، ولا شك أن هذا الحدث قد مثل تحولا جذريا في تاريخ هذه المدينة. ومما ساعد على سرعة اندماج هؤلاء الوافدين داخل المجتمع الجديد هو دخولهم في مصاهرات مع السكان المحليين من قبائل البجه، وبمرور

الوقت تغلغل الإسلام داخل سواكن وأصبح هو الديانة الرسمية لمعظم السكان، كما أن العرب نجحوا في أن يفرضوا سيطرتهم داخل المدينة (١٠). من ناحية أخرى فقد كان هؤلاء السكان الوافدون يحتاجون إلى ميناء في تلك المنطقة الساحلية، يؤمن لهم التواصل مع موطنهم الأصلي، وهذه كانت بداية الظهور الحقيقي لسواكن كميناء رئيس على الساحل الغربي للبحر الأحمر. وقد كان لمهارة العرب وخبراتهم في الملاحة البحرية دور كبير فيما وصلت إليه سواكن من شهرة تجارية، وتشارك معها في القيام بهذا الدور آنذاك ميناء عيذاب (١١) الذي يقع شمالها، وميناء باضع الذي يقع جنوبها (١٢).

وعلى ذلك فإنه لا يمكن القبول بما أوردته موسوعة *Britannica* التي تذهب إلى القول بإن سواكن تم تأسيسها في القرن ٦هـ/١٢م، وذلك كميناء منافس لعيذاب، حيث كان يتم تحصيل الرسوم على التجارة. فوجود هذه المدينة كان سابقا لهذا التاريخ بعدة قرون، وهو الأمر الذي تؤكده كذلك وثائق الجنيزة؛ ففي وثيقة تعود إلى عام ١١٠٣م، يقول كاتبها: "وصلنا إلى مدينة تسمى سواكن، وهي تعد بحق من أفضل وأجمل السكنى"، وهذا النص دليل على ظهور المدينة قبل زمن هذه الرسالة بوقت طويل، خاصة إذا ما وضعنا في الاعتبار أن عملية تطور المدن وازدهارها– منذ عملية التأسيس– تحتاج لوقت ليس بالقصير (١٣).

٢. موقع سواكن وأهميته:

إن موقع سواكن الجغرافي يتميز بتفرده وبكونه استثنائيا؛ فهذه الجزيرة المرجانية المنخفضة تقع في نهاية قناة طويلة مفتوحة من البحر الأحمر عبر شعاب مرجانية كثيفة، كما أن تلال البحر الأحمر أمدت هذه الجزيرة بكميات كبيرة من الرواسب الرملية على سهولها المسطحة خلف الشعاب المرجانية. ولا شك أن هذه المعطيات الجغرافية جعل ميناء الجزيرة مثاليا ومهيئا لاستقبال السفن التجارية (١٤). كما أن الجزيرة نفسها كانت تتكون في الأصل من نتوء مرجاني طبيعي منخفض أصبح هو المحور المركزي للاستيطان والاستقرار (١٥).

وقد ترك لنا المستكشف والبحارة البرتغالي جواو دي كاسترو– الذي زار سواكن عام ١٥٤١م– وصفا للجزيرة قائلا إنه "في وسط زاوية دائرية في البحر توجد جزيرة مسطحة ومستديرة، وهي تقع على مسافة قريبة من البر، وفي هذه البقعة يكاد لا يوجد بها موضع لقدم، لأنها مكتظة بالمنازل، وعليه فإن كل الجزيرة هي مدينة وكل المدينة هي جزيرة، هذه هي سواكن" (١٦). بيد أن الجزيرة نفسها لم يكن يوجد بها مصدر للمياه العذبة، فليس هناك نبع أو

نهر، وإنما كان هناك عدد من الآبار بالقرب من البر الرئيسي، وهي التي كان يجلب منها الماء للسكان [١٧]. وفي هذا السياق يذكر الرحالة ابن بطوطة أن الماء العذب كان يجلب إلى سواكن من البر في القوارب، وأن مياه الأمطار القليلة التي تتساقط عليها كانت تجمع في صهاريج معدة لهذا الأمر. وربما ندرة المياه كات سببا في عدم وجود زرع أو شجر في أرضها، كما أشار إلى ذلك هذا الرحالة [١٨].

من ناحية أخرى فإن سواكن- بحكم موقعها الاسترتيجي المفتوح على شبه الجزيرة العربية- تعد واحدة من أهم المراكز التي وصلها الإسلام منذ وقت مبكر، ثم عبر منها إلى بلاد السودان ومنطقة شرق ووسط أفريقيا [١٩].

أما بالنسبة لسواكن- فيما يخص موقعها وسكانها- عند المؤرخين والجغرافيين العرب فيمكن القول إن الهمداني (المتوفي حوالي ٣٣٦هـ/٩٤٧م) يعد من أوائل الذين ذكروا اسم هذه الجزيرة في مؤلفاتهم، وقد ورد هذا الأمر في كتابيه صفة جزيرة العرب وكتاب الجوهرتين العتيقتين، وارتبطت شهرة سواكن لديه بأنها مصدر من مصادر معدن الذهب، فهو يقول: "ومن معادن أرض النوبة والحبشة العلاقي ... ومن مظان التبر دهلك وعيذاب وباضع وسواكن" [٢٠]. أما المسعودي (المتوفى عام ٣٤٦هـ/٩٥٧م)- أي في وقت مقارب للهمداني- فيذكر أن سواكن جزيرة صغيرة لا تتعدى مساحتها ميل في ميل، "وبينها وبين البر الحبشي بحر قصير يخاض"، ويقول كذلك إن سكانها يسمون "الخاسة"، وهم ينتسبون إلى قبائل البجه المسلمة، وهناك ملك منهم كان يحكم هذه الجزيرة [٢١]. ولا شك أن سواكن آنذاك كانت لا تزال في مرحلة التأسيس والنشأة، ولم يظهر لها بعد دور ملموس في مجال الملاحة والتجارة، لذلك لم نجد أي أشارة لدى هذين الجغرافيين عن مينائها أو نشاطها التجاري.

ثم نلاحظ بعد ذلك صمت المصادر العربية عن الحديث عن سواكن حتى منتصف القرن ٧هـ/١٣م تقريبا، عندما أعاد ياقوت الحموي ذكرها في معجمه، وهو يصفها بأنها بلدة مشهورة تقع بالقرب من عيذاب، وكانت بمثابة المرفأ الأساسي للسفن القادمة من جدة [٢٢]. وهنا بدأ يظهر الدور التجاري والملاحي لسواكن في كتابات الجغرافيين، لكن الشيء ربما المستغرب هو وصف ياقوت لسكان المدينة من قبائل البجاه (السود) بأنهم نصارى، رغم أن معجمه يعود تأليفه- كما تم ذكره- إلى النصف الأول من القرن ٧هـ/١٣م، وهو وقت كانت فيه القبائل

العربية قد استقرت بسواكن منذ ما يزيد عن ثلاثة قرون، وتحول فعليا معظم سكان المدينة المحليين من البجاه إلى الإسلام.

وقال عنها ابن سعيد وأبو الفدا إنها صغيرة جدا في مساحتها، فهي "بقدر ضيعة صغيرة في جزيرة صغيرة، قريبة من الساحل، ويخاض إليها من البر". وبين سواكن وعيذاب مسافة سبع مراحل، كما أن هذه الجزيرة وما حولها هي مقر ومسكن لقبائل البجه [٢٣]. فيما يروي النويري أنها جزيرة في بحر القلزم، "بينها وبين البر الحبشي بحر قصير يخاض"، وفيما يخص مساحتها فهي أقل من ميل في ميل، وسكانها طائفة من البجاه تسمى "الخاسد"، وهم يدينون بالإسلام [٢٤]. أما القلقشندي فيذكر أن سواكن "قاعدة بلاد البجه"، وهي جزيرة تقع على طرف بحر القلزم من جهته الغربية، وهي قريبة من البر، ومعظم سكانها من التجار [٢٥].

ولا شك أن ابن بطوطة يعد من أشهر الرحالة الذين قاموا بزيارة الجزيرة، وذلك في النصف الأول من القرن ٨هـ/١٤م، وهو يقول إنها تبعد ستة أميال عن البر [٢٦]. وفي الواقع، فإنه ربما يكون قد وقع نسيان أو خطأ لدى ابن بطوطة في هذا الأمر الذي يخالف الواقع؛ إذ إن الجزيرة لا يفصلها عن البر إلا مسافة قصيرة، وهو ما سبق وأن أشار إليه المسعودي وابن سعيد وأبو الفدا كما تم ذكره مسبقا. مرة أخرى يذكر ابن بطوطة معلومة يخالف فيها الجغرافيين، وذلك عندما يصف سواكن بأنها جزيرة كبيرة [٢٧]، في حين أن معلومات سابقيه ولاحقيه تشير إلى أن مساحتها لا تزيد عن ميل في ميل. والشيء الذي لاحظه كذلك ابن بطوطة في سواكن هو وفرة الماعز والدواجن، لذلك يوجد بها كثير من الألبان والسمن، التي كان يحمل جزء منها إلى مكة [٢٨].

وفيما يتعلق بعناصر السكان داخل سواكن، فإن المدينة– كبقية مدن موانئ البحر الأحمر– كان يتشكل سكانها من أجناس وعناصر مختلفة ومتعددة، وإن كان العنصر العربي هو الذي كان مهيمنا وغالبا عليها. وتشير الروايات إلى أن أصول وأجداد العائلات الرئيسة لعرب سواكن تنتمي إلى حضرموت، وبصفة خاصة أولئك القادمين من مدينة الشحر [٢٩]، لذلك فإن سكان المدينة يسمون بـ"الحدارية" نسبة إلى الحضارمة، مع تغيير بسيط طرأ على الكلمة [٣٠]، وقد قدمت تلك الهجرات العربية إلى سواكن بعد وقت قصير من ظهور الإسلام وبداية انتشاره. علما بأن هؤلاء الوافدين قد اختلطوا مع قبائل البجاه (الوثنيين)، الذين كانوا يقطنون سواكن ومعظم المدن الساحلية في تلك المنطقة، فاستقروا بينهم، واندمجوا وتزاوجوا

معهم [٣١]. وقد وصف المقريزي الحدارية بأنهم "شوكة القوم ووجوههم" [٣٢]. كما كان هؤلاء الحدارية هم من يشكلون الجزء الأكبر من طبقة كبار التجار داخل سواكن [٣٣].

وأشار القلقشندي كذلك إلى أن سواكن على زمنه كان يسكنها الحدارية، وأن حاكمهم (الحدربي) كانت تصدر له مكاتبات من ديوان الإنشاء بالديار المصرية [٣٤]. في حين أن المدينة على زمن ابن بطوطة كان حاكمها الشريف زيد بن أبي نمي، الذي كان أبوه أمير مكة، بينما كانت أمه من نساء البجه. وقد وقف إلى جانب زيد في هذا الأمر كثير من البجاه وأولاد كاهل وعرب جهينة [٣٥]. ويستفاد من حديث هذا الرحالة أن من نصب زيدا حاكما هم سكان المدينة المحليون من البجاه، ولم يكن هناك تدخل من قبل السلطة المملوكية، التي قبلت وارتطت طواعية هذا الاختيار. الشيء الآخر الذي يفهم من روايته أن هذا الأمر جاء متوافقا مع عادات ونظم البجاه في الحكم؛ فهم كانوا يمنحون السلطة للفرع الأموي وليس الأبوي، أو كما يقول المقريزي: "وهم يورثون ابن البنت وابن الأخت دون ولد الصلب، ويقولون إن ولادة ابن الأخت وابن البنت أصح، فإنه إن كان من زوجها أو من غيره فهو ولدها على كل حال" [٣٦].

٣. سواكن مركز تجاري رئيس على ساحل البحر الأحمر

كانت سواكن هي الميناء التجاري والمنفذ الرئيس على البحر الأحمر لبلاد السودان والحبشة والمناطق الأفريقية الداخلية خلال أواخر العصور الوسطى وبدايات العصر الحديث؛ فقد شكلت إحدى النقاط والمراكز الرئيسة في شبكة التجارة في المحيط الهندي والبحر الأحمر. هذا فضلا عن أنها كانت ميناء رئيسا لنقل الحجاج الأفارقة باتجاه الساحل العربي [٣٧]. ولا شك أن الجزيرة في بداية الأمر كانت مستوطنة صغيرة تركز على صيد الأسماك والتجارة المحلية، لكن منذ بداية القرن ٥هـ/١١م بدأت في توسيع نشاطاتها والتركيز على المشاركة في التجارة الإقليمية، وبحلول القرن ٧هـ/١٣م أصبحت من الموانيء الرئيسة على طول الساحل الغربي للبحر الأحمر [٣٨]. فقد أشار ابن سعيد– الذي عاش في القرن ٧هـ/١٣م– إلى النشاط التجاري للمدينة، ذاكرا أن ملكها كان يفرض الضرائب على مراكب الكارمية المارة بين الحجاز واليمن وعيذاب [٣٩]. على أية حال، وإذا ما استثنينا حرفة الصيد التي لم تكن ذات شأن كبير، فإن التجارة كانت هي المصدر الرئيس والوحيد الذي اعتمدت عليه سواكن في إيراداتها؛ حيث إن الجزيرة كانت تفتقر لأي شكل من أشكال الزراعة والصناعة، باستثناء بعض السلع المحدودة المستخدمة محليا [٤٠].

في الحقيقة كان موقع سواكن وميناؤها جاذبا لحركة التجارة ما بين القارة الأفريقية والسواحل العربية؛ لذلك فقد كان التجار يفضلون الرسو بميناء المدينة ثم الولوج من هناك ببضائعهم إلى المناطق الداخلية لبلاد السودان [٤١]. ومن المؤكد كذلك أنه بحلول القرن ٧هـ/١٣م- وربما قبل ذلك بكثير- كانت سواكن تمثل منفذا مهما لتصدير العبيد من السودان [٤٢]. هذا بالإضافة إلى أن سواكن كانت مرتبطة بقافلة "شنكرة" بالقرب من مدينة بربر، وكان هذا الطريق البري يمر عبر الأودية التي تخترق الصحراء الشرقية، وعن طريق هذا المعبر كانت تحمل سلع النوبة والسودان والحبشة بالإضافة إلى البضائع الواصلة إلى ميناء سواكن من بلاد اليمن والهند، وكانت نهاية هذا الطريق داخل الأراضي المصرية عند مدينة دراو في أسوان. ويبدو أن هذا الطريق كان من أهم أسباب استمرار الدور الذي لعبته سواكن كمحطة رئيسة في تجارة المنطقة. هذا فضلا عن الطرق البرية التي كانت تربط سواكن بوادي النيل وإثيوبيا، والتي عن طريقها كان يتم نقل البضائع القادمة إلى سواكن من بلاد الهند، وهذه كلها معطيات وإشارات مهمة تظهر الدور الحيوي الذي أدته هذه المدينة في ذلك الوقت [٤٣]. من ناحية أخرى، فإن سيطرة البجه على المناطق النائية، وتحكمهم في الطرق التي تربط سواكن بالمناطق الداخلية، جعل كل من يسعى للسيطرة على المدينة وتجارتها يحتاج إلى مساعدتهم للتزود بالمؤن، ولنقل البضائع التجارية إلى الداخل [٤٤]. وقد أشار إلى هذا الأمر ابن سعيد عند حديثه عن قبائل البجه؛ قائلا إن منهم مسلمين ونصارى وأصحاب أوثان، وإنهم "هم الذين يسيرون بالحجاج والتجار في تلك الصحاري على جمالهم، والمشهور عنهم الأمانة" [٤٥].

مهما يكن من أمر، فإنه إذا كان ميناء عيذاب قد احتل صدارة المشهد في تجارة الساحل الغربي للبحر الأحمر، وأصبح- إقليميا- المركز التجاري الأكثر أهمية بالنسبة للسلطة الحاكمة في مصر خلال الفترة من القرن ٥هـ/١١م وحتى القرن ٨هـ/١٤م، لكونه القاعدة البحرية التي ربطت مصر بتجارة الشرق الأقصى، (ونظرا لهذه الأهمية فإن السلطة المملوكية كانت حريصة على أن تعين حاكما على المدينة إلى جانب حاكم من قبائل البجه المحلية، وكانا يقتسمان الرسوم الجمركية) [٤٦]، فإن ذلك لم يمنع ميناء سواكن من أن يلعب دورا- وإن كان ثانويا- في تجارة المنطقة؛ فقد تمكن سكان المدينة من جذب جزءا من التجارة المصرية إلى مينائهم، خاصة وأن الضرائب الجمركية على البضائع كانت منخفضة قياسا بما كانت تؤديه السفن داخل ميناء عيذاب، كما أنها ارتبطت بصلات تجارية مع جدة وبلاد النوبة، وقد تم حمل العديد من السلع

التي تأتي من هذه النواحي- كالرقيق والشمع والعسل- من سواكن إلى الديار المصرية. هذا فضلا عن أن قبائل البجه فتحت الطرق البرية أمام التجار القاصدين مدينتهم من اليمن وبلاد الهند، ولازمت القوافل وأمنت طريقها أثناء رحلاتها في المناطق الداخلية (٤٧).

النشاط التجاري لسواكن بحسب وثائق الجنيزة:

من خلال المعلومات المستقاة من المصادر العربية في القرن ٤هـ/١٠م يمكننا القول إن سواكن كانت في ذلك الوقت ميناء ثانويا تحت سيطرة البجه، وقد تخصصت في تصدير المواد الغذائية إلى الحجاز، وهو دور حافظت عليه طوال تاريخها، إلا أنه بحلول بدايات القرن ٦هـ/١٢م أصبحت سواكن محطة ثابتة ومهمة في رحلات سفن تجار الكارم (٤٨) المبحرة من بلاد الهند باتجاه السواحل المصرية (٤٩).

والواقع إنه عند الحديث عن سواكن ودورها في تجارة التوابل والكارمية في العصور الوسطى فإن وثائق الجنيزة تعد بلا شك هي أهم المصادر التي يمكن الاعتماد عليها لإيضاح هذا الأمر. وبمطالعة هذه الوثائق يمكننا التأكيد على تواجد تجار الكارم داخل سواكن، بل وقيامهم ببعض العمليات التجارية داخل المدينة؛ ففي خطاب- يعود تاريخه إلى سنة ٥٢٤هـ/١١٣٠م- مرسل من التاجر مضمون بن الحسن- المقيم آنذاك بعدن- إلى أبي زكري كوهين- ممثل التجار في الفسطاط- يظهر لنا اسم سواكن كميناء أبحرت إليه السفينة التي تحمل تجارة مضمون وقامت بدفع الضرائب المقررة: "مرة أخرى، أنا عبدك، وأسأل الله تعالى الهداية، أرسلت مع الشيخ المعروف والمحترم نهراي بن علان ومع الشيخ إبراهيم بن أبو الحسن المعروف بابن المطالب الموثوق به، ومن خلال كليهما، بالشراكة مع الشيخ المعروف بلال بن جرير الأوحدي، ستين بالة من اللك (صمغ اللك وهو عبارة عن مادة راتينجية) وزنها ١٠٠ بهار، وللرسوم في عيذاب، جمارك وشحن، ثماني بالات من الفلفل، تباع في عيذاب للمصروفات الجمركية والشحن، وأيضاً ١٠٠ ثوب *قيسي* للجمارك في **سواكن** وأماكن أخرى" (٥٠). ويبدو لنا كذلك من إحدى الخطابات المنسوبة إلى التاجر محروز بن يعقوب- التي تعود إلى العام السابق نفسه، والمرسلة من مدينة **سواكن**- الحجم الضخم لحمولة سفن الكارم- بما تشتمل عليه من بضائع وسلع- القادمة إلى ميناء المدينة؛ فقد أفاد هذا التاجر أن الكارم كان يحتوي على ٣٠٠٠ بالة (٥١). ويتضح من هذا الخطاب كذلك أن تجار الكارم لم يمروا في هذا

العام بميناء عدن (ربما بسبب ظروف البحر أو الرياح)، وإنما توجهوا مباشرة من الهند إلى ميناء سواكن [٥٢].

ولدينا وثيقة أخرى تتحدث عن معاملات التاجر اليهودي بركات الليبدي، وهي تعود إلى عام ٥٢٦هـ/١١٣٢م، وقد جاء فيها: "تم استخدام العشرين ثوبا (جلباب) المتبقية لدفع الرسوم الجمركية. وقد تم بيعها من جميع الملابس التي تم شراؤها، واستُخدم (ثمنها) لدفع الرسوم الجمركية؛ فقد تم بيعها في مدينة **سواكن** بمبلغ ١٠ دنانير، التي تم انفاقها على دفع الجمارك في عيذاب" [٥٣]. والواقع أن هذه الوثيقة تؤكد كذلك على تبعية سواكن لحاكم مصر؛ فهي تشير إلى أن التاجر بركات لما كان في عدن– وعند مروره كذلك ببعض الموانئ التي تقع في أقصى جنوب البحر الأحمر– قام بعمليات البيع والشراء، ودفع الرسوم الجمركية والمستحقات الأخرى الخاصة بمصاريف الشحن مستخدما في كل ذلك الدينار اليمني، أما عند وصوله إلى ميناء **سواكن** فقد استخدم الدينار المصري في جميع معاملاته [٥٤].

كما أن احدى هذه الوثائق المؤرخة في ٥٣٠هـ/١١٣٦م، تشير إلى أن أحد التجار اليهود، الذي كان كذلك يمتلك سفينة تجارية، ويدعى محروز بن يعقوب العدني (المشار إليه سابقا)، قد قدم من الساحل الهندي إلى عدن ومعه كميات من التوابل والحديد، ثم انطلقت بهم السفينة بعد ذلك باتجاه ميناء **سواكن**، ومن هناك قام بإرسال خطاب إلى التاجر اليهودي مضمون بن الحسن، أحد شركائه التجاريين بمصر، يزوده بأخبار الرحلة، ويخبره بقرب وصوله [٥٥].

العلاقات التجارية لسواكن من خلال الحفريات والاكتشافات الأثرية:

نظرا للدور المهم الذي لعبته سواكن على ساحل البحر الأحمر في العصر الإسلامي والعصر الحديث، فقد انطلق– مع بدايات القرن الحادي والعشرين– مشروع كبير لمحاولة استكشاف تاريخ هذه المدينة، ودراسة آثارها المعمارية، والعمل على ترميم مبانيها. وقد كشفت الحفريات التي قام بها العلماء عن وجود منطقة في وسط المدينة تعد بمثابة سوق ومتجر كبير، مخصص للإنتاج ولبيع السلع والمواد الغذائية، وقد قام هذا السوق بدور اقتصادي مهم خلال القرنين ٩هـ/١٥ و١٠هـ/١٦م، بل إن هذه الحفريات أظهرت أن تلك المستوطنة والمؤسسة التجارية ربما تعود إلى منتصف القرن ٥هـ/١١م [٥٦].

من ناحية أخرى، يقدم لنا الخزف المكتشف دليلا واضحا على وجود اتصالات وعلاقات تجارية واسعة النطاق ومتشعبة بين سواكن والعالم الخارجي منذ بداية القرن ٨هـ/١٤م والفترات اللاحقة، كما أن الروايات التاريخية تسير جنبا إلى جنب مع تلك الأدلة الخزفية الأثرية للتأكيد على هذا الأمر. فبالنسبة لمصر، ظل ميناء سواكن يمثل أهمية كبيرة ومحطة رئيسة في تجارتها القادمة عبر البحر الأحمر والواصلة إلى القاهرة والإسكندرية. أما بالنسبة لشبه الجزيرة العربية فقد كانت هناك صلات مباشرة ما بين سواكن وميناء جدة [٥٧] على الساحل الشرقي للبحر الأحمر، سواء لنقل البضائع التجارية أو أفواج الحجاج القاصدين بيت الله الحرام بمكة. كما أن تلك الآثار تشير إلى ارتباط سواكن بعلاقات تجارية مع الساحل الهندي، هذا بالإضافة إلى بلدان ومدن شرق وجنوب شرق آسيا، مثل بلاد الصين وملقا وبيجو [٥٨].

ومن بين الأدلة الأثرية التي تم الكشف عنها حديثا بجزيرة سواكن قطعة جرة (قلة) من الفخار، المميزة بسلسلة من الخطوط الرفيعة، والمحفورة بشكل رأسي على سطح هذه الجرة. والواقع أن مثل هذه الأواني– في شكلها وزخرفتها– كانت تصنع وتنتج بكميات كبيرة في مدينة الفسطاط، وهو أمر يزيد من افتراضية وصولها من مصر، ومن ثم تعد دليلا على وجود روابط وتبادل تجاري بين سواكن ومصر [٥٩].

من جانب آخر، توجد بعض الأدلة الأثرية التي تشير إلى وجود اتصالات بين سواكن من ناحية وجنوب شبه الجزيرة العربية وشرق أفريقيا من ناحية أخرى؛ فقد كشفت الحفريات عن وجود بعض "الأواني الخزفية المصقولة ذات اللون الأصفر" في عدد من أرجاء المدينة، منها منطقة "شارع السوق"، التي يرجع تاريخها إلى الفترة الزمنية الممتدة من القرن ٩هـ/١٥م وحتى القرن ١٢هـ/١٨م. وأكد الأثريون أن هذه الأواني وصلت إلى سواكن من اليمن، وبصفة خاصة مدينة زبيد [٦٠]، هذا بالإضافة إلى بعض مدن الساحل الشرقي لأفريقيا، مثل شانجا Shanga وكلوا Kilwa ومندا Manda [٦١].

كما كشفت لنا الحفريات الأثرية عن وجود صلات تجارية لسواكن مع بلاد الهند– التي تعد المركز التجاري الأكثر أهمية في منطقة الشرق في العصر الوسيط–؛ فقد تم العثور على بقايا "أواني خزفية سوداء اللون"، تتشابه وتتوافق مع الأواني المكتشفة في المواقع الهندية التاريخية والأثرية، والتي تعود إلى حقبة العصور الوسطى المبكرة. وباستخدام الكربون المشع ودراسة طبقات الأرض في مواقع الحفر والتنقيب تبين أنها تعود تاريخيا إلى الفترة الزمنية

الممتدة من القرن ٧هـ/١٣م وحتى القرن ١٠هـ/١٦م. جدير بالذكر أن تلك الأواني الخزفية تم العثور على مثيل لها كذلك في مدينة صحار [٦٢] العمانية، وهي تعود إلى القرن ٩هـ/١٥م [٦٣].

هذا بالإضافة إلى العثور على بعض الأواني الخزفية المزخرفة، التي يرجح وصولها للمدينة من الصين وبلدان جنوب شرق آسيا، مثل تايلاند وفيتنام، وذلك في الفترة من القرن ٨هـ/١٤م وحتى القرن ١٠هـ/١٦م [٦٤]. هذه الاكتشافات ربما تجعلنا نفكر في أن الأسطول الصيني بقيادة الأدميرال تشنغ-هي- الذي خرج في سبع رحلات باتجاه المحيط الهندي وسواحل البحر الأحمر في النصف الأول من القرن ٩هـ/١٥م- قد قام بزيارة سواكن، خاصة وأنه في إحدى رحلاته- عام ٨٣٦هـ/١٤٣٣م- قد وصل إلى مدينة جدة، وهو تاريخ يكاد يتزامن مع أول ظهور للخزف الصيني في المدينة [٦٥].

وفي المجمل، فإنه من خلال الحفريات الأثرية التي تمت في سواكن- خاصة تلك المتعلقة بـ "بيت الباشا" الواقع في وسط المدينة- وباستقراء المعلومات التاريخية المعتمدة على الكربون المشع في دراسة طبقات التربة، يتضح جليا أن جزيرة سواكن كانت منذ أواخر القرن ٤هـ/١٠م وأوائل القرن ٥هـ/١١م مستوطنة متكاملة، ومركزا مهما على ساحل البحر الأحمر، وأن أهمية تلك الجزيرة ونشاطها التجاري مع العالم الخارجي بدأ في نمو وازدياد خلال القرن ٧هـ/١٣م، وهذا أمر يؤيده ما تم العثور عليه من كميات كبيرة من الخزف والأواني المستوردة من مناطق شتى [٦٦].

سواكن ترث الأهمية التجارية لميناء عيذاب:

تمثل بدايات القرن ٩هـ/١٥م الفترة الأكثر ازدهارا في تاريخ تجارة سواكن، كم أنها شهدت تبوأ مينائها مكان الصدارة على ساحل البحر الأحمر، والسبب في ذلك الأمر يعود في المقام الأول إلى الانهيار والخراب الذي لحق بميناء عيذاب- حوالي عام ٨٢٩هـ/١٤٢٦م [٦٧]- الذي كان يعد الميناء الأكثر أهمية في المنطقة حتى ذلك الوقت، ومن ثم تحول الثقل التجاري إلى ميناء سواكن، الذي أصبح من الآن فصاعدا المحطة الرئيسة للقوافل التجارية المصرية على هذا الساحل [٦٨]. من ناحية أخرى، فقد تسببت الضرائب الباهظة التي فرضها حكام دولة بني رسول [٦٩] باليمن على التجار الهنود القادمين إلى ميناء عدن [٧٠] في تشجيع هؤلاء التجار على مواصلة رحلتهم داخل البحر الأحمر دون التوقف في عدن، والتوجه ببضائعهم إلى سواكن

ودهلك [٧١] وجدة [٧٢]. فيذكر المقريزي أنه في عام ٨٢٦هـ/١٤٢٣م قدم أحد التجار- ويدعى إبراهيم- بعدة مراكب من كاليكوت إلى سواكن ودهلك مباشرة دون أن يمر بميناء عدن، الذي كان سابقا الميناء الرئيس للسفن القادمة من الهند، بحيث إنها لم تكن تتجاوزه. وقد أقدم هذا التاجر على هذا الأمر "حنقا من صاحب اليمن"، الذي أساء معاملته وفرض على تجارته ضرائب مجحفة [٧٣].

جدير بالذكر أن أحداث الحروب الصليبية والغزو المغولي- منذ النصف الثاني من القرن ٧هـ/١٣م- تسببت في اضطراب كبير في الطريق التجاري البري الذي عرف بطريق الحرير، بالإضافة إلى فقدان الطريق البحري عبر الخليج العربي/الفارسي لكثير من أهميته، وقد ساهم هذا الأمر في نقل الثقل التجاري إلى مواني البحر الأحمر، ومن بينها سواكن التي شهدت نهضة كبيرة آنذاك، ومما يدلل على هذا الأمر ما تذكره المصادر من وصول عدد ليس بالقليل من التجار البنادقة إلى سواكن واقامتهم بها لبعض الوقت، وذلك مع بدايات القرن ٨هـ/١٤م [٧٤]. ومن الأحداث الأخرى التي يمكن أن تذكر في هذا السياق هو استيلاء الأتراك العثمانيين على القسطنطينية عام ٨٥٧هـ/١٤٥٣م، مما أدى إلى صعوبة اختراق الطريق التجاري الشرقي، ومن ثم تركزت العمليات التجارية للمدن الإيطالية- خاصة البندقية- على طريق البحر الأحمر، وهو أمر عزز من تواجد هؤلاء التجار في سواكن وبلاد الحبشة خلال القرن ٩هـ/١٥م [٧٥]. كما أننا- خلال هذا الفترة- بدأنا نطالع اسم سواكن في احدى الخرائط الجغرافية التي تنسب إلى التاجر الجنوي Carignano، وهو يسميها *Seueci* [٧٦].

وبحلول القرن ١٠هـ/١٦م كانت سواكن قد رسخت مكانتها كمركز رئيس للتجارة الدولية والإقليمية، متجاوزة بشكل نهائي عيذاب، التي لم يتم الإشارة إليها مطلقا في المؤلفات البرتغالية التي تعرضت لوصف المراكز التجارية على سواحل البحر الأحمر، وفي مقدمتها دراسة جواو دي كاسترو عام ٩٧٨هـ/١٥٤١م [٧٧]. كما أن المؤرخ البرتغالي تومي بيريس يمدنا بمعلومات قيمة ومفصلة عن مكانة سواكن في طرق التجارة حوالي عام ٩١٨هـ/١٥١٢م؛ فمن ناحية، شاركت المدينة- إلى جانب زيلع وبربرة- في تصدير بعض المواد الغذائية "منخفضة القيمة"، مثل اللحوم والأسماك والقمح والأرز والشعير والدخن إلى جدة [٧٨]، ومن ناحية أخرى، لعبت المدينة دورا مهما في تجارة التوابل "ذات الأهمية الكبيرة"؛ حيث كانت تصل هذه التوابل من بلاد الهند ومن جنوب شرق آسيا إلى عدن أولا، ومن هناك يتم نقلها عبر البحر الأحمر إلى

كمران [٧٩] ودهلك وسواكن حتى تصل إلى ميناء القصير [٨٠]، حيث يتم شحنها برا إلى النيل (خلال ثلاثة أيام)، ثم بالمراكب النيلية إلى القاهرة (خلال عشرة أيام). ونظرا لأن هذا الطريق البري بين القصير والنيل لم يكن آمنا بدرجة كافية، فقد فضل بعض التجار تحمل مخاطر عواصف وأمواج البحر الأحمر، وذلك بالتوجه بحرا من سواكن إلى جدة، ثم يتم نقل البضائع بعد ذلك إلى القاهرة [٨١]. فضلا عن ذلك فإن سواكن قد صدرت إلى بلاد الهند –عبر عدن– سلعا أفريقية عالية القيمة مثل الذهب والفضة [٨٢].

كما أن أحد التقارير– الذي يعود إلى عام ٩٣١هـ/١٥٢٥م والذي على الأرجح دونه قائد الأسطول العثماني في البحر الأحمر– يشير إلى الدور المحوري الذي لعبته سواكن في تجارة الخيول، التي كان يتم تصديرها من صعيد مصر إلى أثيوبيا [٨٣]. كما أن مؤلف هذا التقرير يذكر سبب النشاط التجاري الملحوظ داخل سواكن والأهمية التي نالها ميناؤها قائلا: "مقابل ميناء جدة، على الجانب الآخر من البحر الأحمر، يقف ميناء آخر يعرف باسم سواكن. وغالبا ما كان يتوجه التجار القادمون من الهند إلى هذا الميناء، هاربين من الظلم المفرط الذي كانوا يعانون منه في ميناء جدة. وهناك كان العرب (سكان المدينة من الحدارية) يأتون إلى كل سفينة ليجمعوا منها العشر، وكانوا يتقاسمون هذه الأموال ثم يتفرقون مرة أخرى. ويقال إن الشريف بركات (حاكم مكة) كان كذلك يأخذ نصيبه (من هذه الضرائب)" [٨٤].

وبحلول عام ١٥٤٠م، كانت سواكن قد وصلت إلى مرحلة من النمو والازدهار أثارت اعجاب واندهاش البرتغاليين، الذين وصلوا إليها بأسطولهم للسيطرة عليها [٨٥]. كما أن البرتغالي دي كاسترو المشارك في هذه الحملة العسكرية– مؤلف أحد أقدم التقارير عن سواكن– أشار صراحة أن مستوى وحجم التجارة في ميناء المدينة كان يضاهي مدينة لشبونة البرتغالية (ذات الأهمية التجارية الكبيرة في أوروبا في ذلك الوقت، والتي كانت تهيمن على تجارة الهند)، مؤكدا أن العلاقات التجارية لسواكن آنذاك قد تمددت وتشعبت لتشمل بلاد الهند ومنطقة الخليج العربي، وساحل جدة، ومدينتي القاهرة والإسكندرية، وبلاد الحبشة، التي كانت تتحصل منها على كميات كبيرة من الذهب والعاج [٨٦].

ميناء سواكن:

كان ميناء الجزيرة يمتلك العديد من المميزات وعوامل الجذب كميناء بحري مؤهل لاستقبال السفن التجارية بجميع أحجامها بكل أمان؛ فقد قدمت سواكن "مرسى محميا من الرياح"

على ساحل قاس في تضاريسه، "وغير مضياف إلى حد كبير". كما أن الميناء كان سهل الولوج بالنسبة للسفن، ويمكن الملاحة فيه بسهولة بفضل عمق المياه المناسب، وجودة أرضية القاع. ولما كان هذا الميناء مكشوفا وغير محاط بأي عوائق طبيعية فقد كانت السفن قادرة على الرسو به لفترات طويلة من الوقت وهي آمنة، نظرا لأنه يمكن ملاحظتها ومتابعتها بسهولة من خلال "نقاط المراقبة" الموجودة في كل من الجزيرة والبر الرئيسي (٨٧). ومن خلال الكتابات المبكرة نجد أن "الميناء" كان مشتركا بين طائفة التجار وقبائل البجه من السكان المحليين (٨٨). وقد أشاد الرحالة فان جيستل Van Ghistele– مع نهاية القرن ٩هـ/١٥م– بسواكن وبمينائها الجيد والمميز، قائلا إن المرء يستطيع أن يتزود فيها بكل ما يحتاجه من بضائع (٨٩).

والواقع أن ميناء سواكن كان مقصدا لكثير من القوافل التجارية وذلك بسبب الذهب الحبشي الذي يمكن التحصل عليه من هناك؛ فقد كان الأثيوبيون منخرطين في تجارة الشحن البحري بسواكن، حاملين معهم كميات كبيرة من هذا المعدن النفيس. كما أن تجار سواكن كانوا يذهبون كذلك إلى أسواق أكسوم حاملين معهم الملابس الهندية الشهيرة في مقابل الحصول على الذهب (٩٠). هذا فضلا عن أن هناك طريقا تجاريا مباشرا كان يربط سواكن بمناجم الذهب الواقعة بالقرب منها في تلال البحر الأحمر، خاصة في وادي العلاقي (٩١). فعند حديثه عن بلاد البجه، يؤكد المقريزي على وفرة هذا المعدن النفيس في تلك المناطق، ذاكرا أن أرضهم كلها معادن، "وكلما تصاعدت كانت أجود ذهبا وأكثر" (٩٢).

وقد أظهرت الحفريات الأخيرة أن عمليات تفريغ البضائع من السفن داخل الميناء عادة ما كانت تتم بإنزالها إلى الساحل مباشرة، مما يتيح سهولة نقلها إلى منازل التجار، الموجودة بالقرب من الشاطيء. لكن هذا الأمر شهد تغيرا في الحقبة العثمانية؛ فقد تم بناء رصيف ومكاتب مخصصة لعمليات الشحن والتفريغ داخل الميناء (٩٣).

من ناحية أخرى، فإنه مع بدايات القرن ١٠هـ/١٦م أصبح ميناء سواكن هو المنفذ البحري الأساسي الذي كان يرتاده الحجاج المسلمون القادمون من وسط وغرب إفريقيا، الراغبون في التوجه من هناك إلى مكة المكرمة، خاصة بعد انتشار الإسلام على نطاق واسع في تلك المناطق، بل إنه أصبح كذلك الميناء المفضل للحجاج المصريين، خاصة بعد تخريب ميناء عيذاب، الذي كان سابقا يقوم بهذا الدور (٩٤). ولا شك أنه مما عزز من قدرة ميناء سواكن على

القيام بهذه المهمة هو قرب المسافة بينه وبين ميناء جدة، الذي يمثل المنفذ البحري الرئيس للمدينة الإسلامية المقدسة (٩٥).

كما أن ميناء سواكن غالبا ما كان يستخدم كنقطة انطلاق للحجاج ورجال الدين المسيحيين الأثيوبيين الراغبين في الذهاب إلى بيت المقدس (٩٦)، وذلك منذ القرن ٩هـ/١٥م، ولا شك أن رحلات هؤلاء الحجاج قد أوجدت رواجا كبيرا لحركة البيع والشراء داخل أسواق سواكن. جدير بالذكر أن أعداد هؤلاء الحجاج المسيحيين كانت تفوق أعداد الحجاج المسلمين القاصدين المدينة (٩٧). وفي هذا السياق لدينا رواية مفصلة للقس والرحالة البرتغالي فرانشيسكو ألفاريز – الذي كان متواجدا في أثيوبيا بين عامي ١٥٢٠ و١٥٢٧– عن الرحلة التي قام بها صحبة أكثر من ثلاثمائة راهب حبشي إلى القدس، وهي رحلة حج سنوية قد اعتاد على القيام بها هؤلاء الرهبان، ذاكرا أن السلطات الأثيوبية دخلت في مفاوضت مع بعض التجار المسلمين لنقلهم إلى القاهرة. ويضيف ألفاريز أن وقت المغادرة كان في وقت قريب من عيد الميلاد، حتى يتمكن الحجاج من الوصول في "الأسبوع المقدس". وخلال هذه الرحلة كان الحجاج يسلكون واحدا من طريقين تقليديين: الأول منهما هو طريق بري عبر **سواكن**، ثم يقومون بعبور الصحراء إلى قوص، ومنها يسيرون بمراكب نيلية حتى القاهرة، ثم يعبرون شبه جزيرة سيناء وصولا إلى القدس. أما الطريق الآخر فقد كان بحريا، وذلك بالتوجه إلى ميناء مصوع على البحر الأحمر، والإبحار من هناك مباشرة على متن إحدى السفن التجارية باتجاه شبه جزيرة سيناء، علما بأن هذا الطريق كان لا يسلكه الحجاج إلا نادرا، وظل طريق **سواكن** هو الأكثر استخداما (٩٨). والواقع أن الطريق عبر سواكن لم يكن آمنا بالنسبة للحجاج المسيحيين؛ فقد أشار ألفاريز إلى أنه رغم مرافقة التجار المسلمين لهؤلاء الحجاج، إلا أنهم تعرضوا لهجوم بالقرب من سواكن، ولم ينج منهم ويصل إلى القدس إلا عدد قليل (٩٩).

وبصفة عامة يمكننا القول إن الشهرة والازدهار الذي كانت عليه سواكن آنذاك إنما يعود الفضل الأكبر فيه إلى امتلاكها لهذا الميناء المميز؛ وإذا كان البرتغالي دي كاسترو قد وصف المدينة بأنها واحدة من أكثر مدن الشرق رخاء وازدهارا، فإنه يعزو هذا الأمر إلى امتلاكها لميناء "مميز وآمن"، وبواسطته ارتبطت المدينة بعلاقات تجارية مميزة مع "العديد من البلدان النائية" (١٠٠).

٤. سواكن وتجارتها في السياسة المملوكية

يعد الطريق التجاري عبر البحر الأحمر ممرا استراتيجيا بالنسبة لسلطنة المماليك للمحافظة على تجارتها مع السواحل الهندية، خاصة وأن هذه التجارة وعائداتها كانت تمثل العمود الفقري بالنسبة لاقتصاد السلطنة. ورغبة في حماية هذه المصالح فإن سلاطين المماليك– منذ بداية حكمهم– كانوا حريصين على أن تظل موانئ البحر الأحمر تحت سيطرتهم وخاضعة لنفوذهم. ولعل دراسة ما يتعلق بتاريخ المنطقة الساحلية للبحر الأحمر تؤكد أنها ارتبطت ارتباطا وثيقا بمصر أكثر من ارتباطها بأجزاء أخرى من السودان والمناطق الأفريقية الداخلية، لذلك فقد أولى سلاطين المماليك اهتماما متزايدا بموانيء البحر الأحمر، وبمحاولة ربطها بصعيد مصر [١٠١]. وتحقيقا إذا لهذا الغرض، فقد وجدنا سلاطين المماليك يعمدون إلى ربط سواكن بمصر عن طريق "نظام البريد" الذي يضمن لهم الاطلاع على ما يحدث في هذه الجزيرة؛ فقد ذكر ابن فضل الله العمري أن هذا المركز الرئيس لهذا الطريق كان في قلعة الجبل، وعدّد المحطات الرئيسة له وصولا إلى سواكن، وهي كالتالي:

قلعة الجبل← الجيزة← زاوية أم حسن← منية القائد← ونا← ببا← دهروط← أقلوسنا← منية ابن خصيب← الأشمونين← ذروة سربام (ذروة الشريف)← منفلوط← أسيوط← طما← المراغة← بلسبورة← جرجا← البلينا← هوّ← قوص← أسوان← عيذاب ← **سواكن** [١٠٢].

من جانب آخر، فإنه بالرغم من أن الحكم والسيادة الفعلية داخل سواكن كانت في أيدي الحدارية، الذين كانوا يديرون المدينة ككيان سياسي مستقل [١٠٣]، إلا أن ذلك لا يعني غياب الدور السياسي للسلطة المملوكية بصفة نهائية عن هذه المدينة، خاصة في حالة تعرض مصالحهم التجارية للخطر. ففي هذه الحالة كانت الأمور تصل إلى حد تجهيز الجيوش وإخراجها باتجاه سواكن للقضاء على حالات التمرد أو الفتن.

فعلى سبيل المثال، في شهر المحرم من عام ٦٦٢هـ/١٢٦٤م توجه التجار الذين يبحرون عبر سواحل البحر الأحمر بشكواهم إلى السلطان الظاهر بيبرس [١٠٤] ضد ظلم وتعنت حاكم سواكن الشريف علم الدين أسبغاني، الذي كان يقوم بالاستيلاء على أموال من مات من التجار في جزيرته، ويحرم أبناءهم من أخذ ميراثهم. فقام بيبرس في الحال بإرسال رسولا إلي متملك سواكن، ينكر عليه القيام بمثل هذه الأفعال، ويأمره بالتوقف عن إلحاق الظلم بالتجار وذويهم

(١٠٥). ويبدو أن تهديدات السلطان لم تردع حاكم الجزيرة، الذي استمر في معاملته السيئة لتجار الكارم، ومنعهم من الرحيل إلى مصر، لذلك بعد مرور عامين- وتحديدا في ذي القعدة ٦٦٤هـ/١٢٦٦م- وصل كتاب من والي قوص (١٠٦) وإخميم (١٠٧) علم الدين الخزندار يخبر السلطان بخروجه إلى عيذاب، ومنها إلى سواكن على متن عدد من المراكب الكبيرة والصغيرة، بلغ عددها نيف وأربعين مركبا. وقد قام عساكره بمهاجمة سواكن، وتمكنوا من فرض سيطرتهم عليها، وترك حامية بها، واضطر صاحب الجزيرة إلى الفرار، ثم "عادوا إلى قوص وقد تمهدت البلاد، وصارت رجال السلطان بسواكن" (١٠٨). ويبدو كذلك أنه من النتائج المهمة لهذه الحملة هو نجاح السلطة المملوكية- لأول مرة- في تنحية الحاكم الحدربي عن السلطة، وإقامة واحد من قبيلة الأرتيقة مكانه، وهو علم الدين السمعاني (١٠٩). كما أن هذا الوالي الجديد- ومن قبيل إظهار فروض الطاعة والولاء- قام في شهر جمادى الآخرة ٦٦٥هـ/١٢٦٧م بحمل الزكاة والعشور إلى مصر (١١٠).

وعلى ذلك فقد نجحت السلطة المملوكية منذ البداية في فرض سيطرتها ونفوذها على تلك الجزيرة التجارية المهمة، كما أن هذا الأمر فتح الباب أمام المماليك للحصول على السلع والبضائع الحبشية والسودانية ذات القيمة الكبيرة، مثل العاج والصمغ والعبيد. وفي المقابل، فإن ارتباط سواكن بحكام مصر قد عاد عليها بالنفع؛ فقد اكتسبت أهمية تجارية وملاحية كبيرة في المنطقة، بحكم أنها أصبحت محطة أساسية في رحلات السفن التجارية المصرية من وإلى بلاد الهند (١١١).

وكانت السلطات المملوكية تلجأ أحيانا لطلب المساعدة من حاكم سواكن في حالة وقوع نزاع وحروب بين القبائل العربية في المنطقة، وهو الأمر الذي كان يؤثر سلبا على حركة التجارة؛ من ذلك قيام السلطان المنصور قلاوون (١١٢)- في شهر رجب ٦٨٠هـ/١٢٨١م- بمراسلة الشريف علم الدين السمعاني صاحب سواكن يطلب منه التدخل لوقف القتال الدائر بين عرب جهينة ورفاعة، وأن يحاول التوفيق وابرام الصلح بينهم، شريطة "ألا يعين طائفة على أخرى، خوفا على فساد الطريق" (١١٣).

وفي الواقع، ظلت القبائل العربية تمثل قلقا كبيرا للسلطة المملوكية على حدودها الجنوبية، ففضلا عن اغاراتها المتعددة على أسوان فإنها كانت تقوم كذلك بمهاجمة بعض المدن الساحلية، مثل عيذاب وسواكن، وهو أمر كان يمثل تهديدا كبيرا لحركة التجارة المصرية، لذلك وجدنا

سلاطين المماليك يتصدون بكل قوة لمثل هذه المحاولات، ولا يترددون في إخراج الحملات العسكرية لتأديب القبائل المتمردة؛ من ذلك ما حدث عام ٧١٦هـ/١٣١٦م عندما وصلت الأخبار إلى بلاط السطان الناصر محمد بن قلاوون (١١٤) بمهاجمة عرب برية عيذاب للتجار والاستيلاء على أموالهم، وقيامهم كذلك بأسر الرسل الذين بعثهم ملك اليمن إلى السلطان، فقام الناصر في الحال بإخراج جيش مكون من خمسمائة فارس بقيادة الأمير علاء الدين مغلطاي. فتوجه العسكر أولا إلى قوص، ثم تحركوا- في أول المحرم من السنة التالية- باتجاه عيذاب. ويبدو أن العربان قد خشوا من المواجهة، ففروا من أمام هذا الجيش، وتوجهوا ناحية سواكن، فتبعهم الأمير مغلطاي وعسكره "وساروا لمدة اثني عشر يوما وهم يسلكون رءوس الجبال والأوعار، وحصل لهم ضرر كبير بسبب المياه وقلتها". فلما وصلوا إلى سواكن التقوا بطائفة من هؤلاء العربان، "وهم نحو الألفي راكب على الهجن بحراب ومزاريق، في خلق من المشاة عرايا الأبدان، فلم يثبتوا لدق الطبول ورمي النشاب"، فانهزموا ولاذوا بالفرار بعدما قتل منهم عدد كبير (١١٥).

كما يشير ابن فضل الله العمري إلى أن هذه الحملة المملوكية لما وصلت إلى سواكن خرج متملكها لملاقاة الأمير مغلطاي وجنوده، وأبدى طاعته وانقياده لأوامر السلطان، وأنه "مستقر بسواكن نيابة عن السلطنة". كما أنه ألزم نفسه بحمل ضريبة سنوية إلى البلاط السلطاني؛ وهي عبارة عن ثمانين رأس من الرقيق، وثلاثمائة رأس من الجمال، وثلاثون قنطارا من العاج (١١٦). وعلى ذلك فإن هذه الحملة إلى جانب تحقيق أهدافها السياسية العسكرية (بالقضاء على تمرد العربان، وإظهار الخضوع والطاعة من متملك سواكن)، حققت كذلك نجاحا من الناحية الاقتصادية، وذلك بما ستتحصل عليه سنويا من تلك السلع والبضائع الثمينة، التي تعهد صاحب الجزيرة بحملها إلى القاهرة.

ويبدو أن علاقة السلطان الناصر بحاكم سواكن سمرة بن سالك- "صاحب الأثر المحمود والفعل المأثور"- قد كانت على أفضل حال، وأنه لما قدم سمرة إلى البلاط السلطاني بالقاهرة أحسن الناصر استقباله، "وعقد له لواء وشرف بالتشريف"، كما أن السلطان كتب إلى جميع ولاة الوجه القبلي وإلى العربان بمساعدة سمرة، والركوب معه للغزو إذا ما أراد مهاجمة بلاد الحبشة "وأمم السودان"، كما أن الناصر "كتب له تقليدا بإمرة عربان القبلة مما يلي قوص، ومنشور له بما يفتحه من البلاد" (١١٧).

وقد استلزمت الأحداث الدائرة في المنطقة المحيطة بسواكن تدخل السلطان الأشرف شعبان [١١٨]، وفي هذه المرة كذلك كان الخطر قادما من العرب؛ ففي شهر المحرم من عام ٧٦٧هـ/١٣٦٥م أقدم أولاد الكنز والعكارمة على مهاجمة أسوان وسواكن وصحراء عيذاب، وقاموا بقطع الطريق على التجار وأخذ أموالهم، وكرد فعل سريع لمعالجة هذا الأمر صدرت الأوامر السلطانية إلى الأمير أقتمر عبد الغني حاجب الحجاب [١١٩] بالخروج على رأس جيش كبير – بلغ عدده ثلاثة آلاف فارس ويشتمل على العديد من أمراء الألوف [١٢٠] وأمراء العشرات [١٢١] وأمراء الطبلخاناه [١٢٢]– للتصدي لهذا التمرد. فلما وصل العسكر إلى قوص قاموا بمراسلة أمراء الكنوز – الذين كانوا بأسوان– يرغبونهم في الطاعة، ويحذرونهم عاقبة المعصية، "فأتتهم أمراء الكنوز طائعين عند عقبة أدفو، فخلع عليهم الأمير أقتمر عبد الغني وبالغ في إكرامهم"، ثم أوغل هذا الجيش في بلاد النوبة حتى بلغ دمقلة (دنقلة)، ورتب أمور الحكم بتلك المملكة، التي عادت تبدي فروض الطاعة والولاء للسلطة المملوكية. جدير بالذكر أن الأمير أقشتمر لم ينس لعرب الكنوز والعكارمة ما فعلوه بأسوان وسواكن، لذلك فإنه دبر مكيدة مع ملك النوبة، وقام بقتل وأسر عدد كبير منهم [١٢٣].

ولعل الشيء الجدير بالملاحظة في هذا المقام هو أنه طوال فترة حكم دولة المماليك الجراكسة [١٢٤] لم ترد في المصادر المعاصرة أي أحداث أو حملات عسكرية متعلقة بسواكن، التي يبدو أن حكامها قد التزموا بالطاعة لسلاطين مصر حتى نهاية حكمهم، ولم يعودوا لإثارة أي مشاكل متعلقة بالتجار الواصلين إلى ميناء جزيرتهم. ومما يؤكد هذا الأمر إشارة المؤرخ ابن إياس إلى أن هذه الجزيرة استخدمت من قبل سلاطين المماليك كمنفى للأمراء المغضوب عليهم؛ من ذلك ما حدث في المحرم عام ٨٩٤هـ/١٤٨٨م عندما تغير خاطر السلطان على الطواشي خشقدم الخازندار، فأمر بالقبض عليه، "ثم آل الأمر إلى أن خرج منفيا إلى سواكن" [١٢٥]. كما أنه في صفر عام ٩١١هـ/١٥٠٥م عندما غضب السلطان على الأمير محسن الخازن الطواشي، "رسم بنفيه إلى سواكن" [١٢٦].

ولا يفوتنا كذلك في هذا السياق التأكيد على أن سواكن كانت تشكل جزءا من المخطط البرتغالي الهادف إلى فرض السيطرة على جميع موانيء البحر الأحمر لقفل الطريق نهائيا أمام التجارة المملوكية، وذلك بعد أن قاموا بمطاردة السفن الإسلامية داخل مياه المحيط الهندي وطردها من سواحل بلاد الهند، وهو مشروع بطبيعة الحال كان يحمل في طياته نزعة صليبية

(١٢٧). هذا بالإضافة إلى أن الاستيلاء على سواكن- إلى جانب مصوع- كان سيسهل من عملية التواصل بين البرتغاليين وبين حكام أثيوبيا من أجل القيام بعمل مشترك ضد دولة المماليك (١٢٨). ومن جانبهم، فإن حكام إثيوبيا كانوا يرون ضرورة الدخول في تحالف مع الغرب الأوربي المسيحي، وذلك لكسر العزلة التي فرضتها عليهم الدول الإسلامية المحيطة بهم "باسم الحرب المقدسة"؛ ومن أجل تحقيق هذا الهدف تم تبادل إرسال المبعوثين والخطابات ما بينهم وبين الباباوات والملوك الأوروبيين. فعلى سبيل المثال في عام ٨٣٠هـ/١٤٢٧م أرسل الملك إسحاق الأول (١٤١٤-١٤٢٩) سفيرين إلى ملك أراغون ألفونس الخامس، مقترحا عليه السماح للتجار الإسبان بالتردد على "ميناء سواكن الإثيوبي" والتخلي عن الموانئ الأخرى في البحر الأحمر، التي كانت تخضع لنفوذ سلاطين مصر. مؤكدا له أن نجاح مثل هذا المشروع سيؤدي حتما إلى كسر احتكار المماليك لتجارة البحر الأحمر والمحيط الهندي (١٢٩).

مهما يكن من أمر، فإن معرفة البرتغاليين بسواكن وأهميتها التجارية كانت سابقة لوصولهم إلى السواحل الهندية بقيادة فاسكو دي جاما عام ٩٠٤هـ/١٤٩٨م؛ إذ إن الملك البرتغالي يوحنا الثاني قام عام ٨٩٢هـ/١٤٨٧م بإرسال مبعوثين إلى بلاد الشرق الإسلامي عبر الطريق البري، في الوقت الذي كان فيه بارتيلمو دياز يسلك طريق المحيط الأطلنطي عبر سواحل افريقية الجنوبية من أجل الوصول إلى الهند بحرا. هذان المبعوثان هما بدرو كوفلها وألفونسو بايفا، المكلفان بالحصول على "معلومات موثقة" عن مصادر التوابل القادمة إلى أوربا، بالإضافة إلى الحصول على معلومات تخص إمبراطورية القديس يوحنا (الحبشة)، من أجل الدخول في تحالف معها ضد المسلمين. وتروي لنا المصادر أن بايفا فارق مواطنه في عدن، وكانت مهمته بلوغ بلاد الحبشة، وأنه أبحر باتجاه سواكن، إلا أن أخباره انقطعت بعد ذلك ولم يعد له ذكر، ومن المرجح أن يكون قد لقي حتفه قبل أن ينجز مهمته بالوصول إلى البلاط الحبشي (١٣٠).

وفيما يتعلق برد فعل السلطة المملوكية تجاه هذه المشاريع والتطلعات البرتغالية، فلا شك أن السلطان قانصوه الغوري (١٣١) كان يعلم أن هؤلاء الأوربيين- بعد أن استتب لهم الأمر على السواحل الهندية- سيحاولون الولوج إلى البحر الأحمر ومهاجمة موانئه، لذلك- وكأجراء استباقي- قام السلطان عام ٩١٢هـ/١٥٠٦م بإنشاء تحصينات قوية، وبناء الأبراج في مينائي جدة وسواكن (١٣٢).

أما عن أولى المحاولات الفعلية التي قام بها البرتغاليون للسيطرة على هذه الجزيرة فتعود إلى عام ٩١٩هـ/١٥١٣م؛ حيث استولى البرتغاليون على جزيرة كمران القريبة من السواحل اليمنية، كما أنهم قاموا بمحاصرة سواكن، في محاولة منهم للوصول بعد ذلك إلى جدة والأماكن الإسلامية في مكة والمدينة، إلا أن محاولتهم هذه باءت بالفشل، ولم يتمكنوا من الاستيلاء على سواكن (١٣٣). ويبدو أن هذه المحاولة الفاشلة لم تثن البرتغاليين عن محاولة تحقيق هدفهم، لذلك فقد عاودوا الكرة مرة أخرى عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م؛ فقد تحرك أسطولهم الحربي باتجاه مياه البحر الأحمر، يحدوهم الأمل في إنشاء حصن في سواكن أو مصوع (باضع)، لكن الرياح غير المواتية أجبرت هذا الأسطول على اللجوء إلى دهلك، دون النجاح في الوصول إلى سواكن (١٣٤). على أية حال، فإذا كان عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م قد شهد فشل البرتغاليين في الاستيلاء على سواكن، فإن العام نفسه قد شهد كذلك فشل المماليك في إنقاذ دولتهم من السقوط على يد العثمانيين، ومنذ ذلك العام انتقلت سواكن من حقبة النفوذ المملوكي إلى مرحلة التبعية العثمانية، لتبدأ مرحلة جديدة في تاريخ هذه المدينة.

نتائج البحث

من خلال هذه الدراسة التي تعرضت للحديث عن سواكن ومكانتها في تجارة البحر الأحمر في العصر الإسلامي، نستطيع أن نجمل أهم نتائج البحث فيما يلي:

- رغم أن موقع سواكن قد عرف منذ أقدم الأزمان، وكان مقصدا للرحلات التجارية القادمة من مصر في زمن الفراعنة والبطالمة، إلا أن ظهور سواكن بمسماها الحالي وما شهدته من نهضة وازدهار ارتبط بوصول الهجرات العربية إليها من شبه الجزيرة العربية، بحثا عن معدن الذهب الذي اشتهرت به هذه المنطقة. ومما سهل من اندماج هؤلاء الوافدين العرب داخل المجتمع الجديد هو دخولهم في مصاهرات مع السكان المحليين من قبائل البجه، وبمرور الوقت تغلغل الإسلام داخل سواكن وأصبح هو الديانة الرسمية لمعظم السكان.
- كانت سواكن هي الميناء التجاري والمنفذ الرئيس على البحر الأحمر لبلاد السودان والحبشة والمناطق الأفريقية الداخلية خلال أواخر العصور الوسطى، ورغم أن الجزيرة كانت في بداية الأمر مستوطنة صغيرة تركز على صيد الأسماك والتجارة المحلية، إلا أنه منذ بداية القرن ٥هـ/١١م بدأت في توسيع نشاطاتها، والتركيز على المشاركة في التجارة الإقليمية، وبحلول القرن ٧هـ/١٣م أصبحت من الموانئ الرئيسة على طول الساحل الغربي للبحر الأحمر.
- هناك عدة عوامل ساعدت على ما وصلت إليه سواكن من نهضة وازدهار تجاري؛ منها ميناؤها المميز الذي كان محميا من الرياح، كما أنه كان سهل الولوج بالنسبة للسفن، ويمكن الملاحة فيه بسهولة ويسر بفضل عمق المياه المناسب. من ناحية أخرى تميزت سواكن ببضائعها المتنوعة والمهمة كالذهب والعاج، وهي منتجات تحصلت عليها من بلاد الحبشة وبلاد النوبة ومناجم البحر الأحمر، هذا فضلا عن أن قبائل البجه قامت بفتح الطرق البرية أمام التجار القاصدين مدينتهم، ولازمت القوافل وأمنت طريقها أثناء رحلاتها في المناطق الداخلية.
- أثبتت وثائق الجنيزة أن سواكن خلال القرن ٦هـ/١٢م أصبحت محطة ثابتة ومهمة في رحلات سفن تجارة الكارم المبحرة من بلاد الهند باتجاه السواحل المصرية، وأن تجار

الكارم قد قاموا كذلك ببعض العمليات التجارية داخل المدينة. كما أبرزت تلك الوثائق الحجم الضخم لحمولة تلك السفن، بما كانت تشتمل عليه من بضائع وسلع متنوعة.

- من خلال الحفريات الأثرية التي تمت في سواكن اتضح جليا أن هذه الجزيرة كانت منذ أواخر القرن ٤هـ/١٠م وأوائل القرن ٥هـ/١١م مستوطنة متكاملة، ومركزا تجاريا مهما على ساحل البحر الأحمر، وأن أهمية تلك الجزيرة ونشاطها التجاري بدأ في نمو وازدياد خلال القرن ٧هـ/١٣م، كما أنها دخلت في علاقات تجارية متشعبة مع العالم الخارجي، وهو أمر يؤيده ما تم العثور عليه من كميات كبيرة من الخزف والأواني القادمة من مناطق شتى.
- نجحت سواكن في أن تصبح المركز التجاري والملاحي الأهم على الساحل الغربي للبحر الأحمر خلال القرن ٩هـ/١٥م، وذلك بعد الانهيار والخراب الذي لحق بميناء عيذاب– الميناء الأكثر أهمية في المنطقة حتى ذلك الوقت– على يد السلطان برسباي، ومن ثم تحول الثقل التجاري إلى ميناء سواكن، الذي أصبح من الآن فصاعدا المحطة الرئيسة للقوافل التجارية المصرية القادمة من بلاد الهند.
- مثل الطريق التجاري عبر البحر الأحمر ممرا استراتيجيا بالنسبة لسلطنة المماليك للمحافظة على تجارتها مع السواحل الهندية، خاصة وأن هذه التجارة وعائداتها كانت تمثل العمود الفقري بالنسبة لاقتصاد السلطنة، ورغبة في حماية هذه المصالح فإن سلاطين المماليك كانوا حريصين على أن تظل موانئ البحر الأحمر تحت سيطرتهم وخاضعة لنفوذهم. من هنا أتت أهمية سواكن في السياسة المملوكية، وظهر حرص حكام مصر على ربط هذه المدينة بمصر عن طريق "نظام البريد" الذي يضمن لهم التواصل المستمر معها والاطلاع على ما يحدث فيها. كما أنه في حالة تعرض مصالحهم التجارية للخطر داخل سواكن، فإن سلاطين المماليك كانوا يخرجون الحملات العسكرية للقضاء على حالات التمرد.
- شكلت سواكن جزءا من المخطط البرتغالي الهادف إلى فرض السيطرة على جميع موانئ البحر الأحمر لقفل الطريق نهائيا أمام التجارة المملوكية، وذلك بعد أن قاموا بمطاردة السفن الإسلامية داخل مياه المحيط الهندي وطردها من سواحل بلاد الهند،

لذلك قامت السفن البرتغالية بأكثر من محاولة للسيطرة على ميناء سواكن وإقامة حصن بالمدينة، إلا أن هذه المحاولات بائت بالفشل.

الهوامش:

(١) البجه أو البجاه أو البيجه هم سكان الصحراء الشرقية بين النيل والبحر الأحمر، وهم من بقايا شعوب إثيوبيا القديمة، ويقال إنهم من سلالة أولاد كوش بن حام، الذين هاجروا إلى السودان بعد الطوفان. وكان البجه وثنيين ثم تحولوا إلى الإسلام بعد هجرة العرب إلى أفريقيا. ومن قبائل البجه: العبابدة ويتصلون بأسوان، والبشارية الذين يوجدون في القصير وحتى سواكن. أنظر: عبد الله حسين، السودان من التاريخ القديم إلى رحلة البعثة المصرية، الجزء الأول، مؤسسة هنداوي للنشر، القاهرة، ٢٠١٣م، ص ٣١.

(٢) J. Bloss, "The Story of Suakin", in *Sudan Notes and Records*, Part II, Vol. XIX, Published by University of Khartoum, 1936, p. 272.

(٣) J. Bloss, *Op. cit*., p. 272-273; *The Encyclopedia of Islam (New Edition)*, Edited by: C. Bosworth (and others), Vol. IX, LeidenK Brill, 1997, p. 87;
محمد صالح ضرار، تاريخ سواكن والبحر الأحمر، الدار السودانية للكتب، الخرطوم، ١٩٨١م، ص ٢٤؛ صلاح عمر الصادق، دراسات سودانية في الآثار والفلكولور والتاريخ، دار عزة للنشر والتوزيع، الخرطوم، ٢٠٠٦م، ص ٢١٢-٢١٤؛ نعوم شقير، تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته، مطبعة المعارف بمصر، ١٩٠٣م، ١٠٤/١.
مع الأخذ في الاعتبار أن ضرار والصادق يذكرون أن هذه السفارة كانت موجهة من ملك الحبشة إلى نبي الله سليمان عليه السلام ببيت المقدس.

(٤) J. Bloss, *Op. cit*., p. 273; صلاح عمر الصادق، المرجع السابق، ص ٢١٤-٢١٥

(٥) باضع جزيرة في بحر اليمن، وأهلها يتحدثون الحبشية. كما أن التجار الأحباش كانوا يأتون إليها بأنياب الفيلة وبيض النعام، وفي المقابل يتحصلون من أسواق باضع على الأظفار والأمشاط، "وأكثر ما في بلادهم من الظرائف تأتيهم من باضع". ويذكر ياقوت أن باضع على أيامه (النصف الأول من القرن ٧هـ/١٣م) صارت خرابا. أنظر: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧، ٣٢٤/١.

(٦) J. Bloss, *Op. cit*., p. 274; محمد صالح ضرار، المرجع السابق، ص ٢٦-٢٨

(٧) Michael Mallinson, "Nominating Suakin a World Hiretage Site", in *The History of the Peoples of the Eastern Desert*, Edited by: H. Bernard and K. Duistermaat, University of California, 2012, p. 374; J. Bloss, *Op. cit*., p. 275;
محمد صالح ضرار، المرجع السابق، ص ٢٩.

(٨) Jean-Piere Greenlaw, *The Coral Buildings of Suakin*, Oriel Press Ltd, Stocksfield, 1976, p. 13;
محمد عوض محمد، السودان الشمالي سكانه وقبائله، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥١م، ص ٣٥.
ويذكر محمد عوض أن البجه لم يكن لهم دور يستحق الذكر في تعمير سواكن، وأن أهم العناصر التي ساهمت في هذا الأمر هم عرب الشمال والجنوب الذين وصلوا منذ زمن مبكر إلى هذه المنطقة، لذلك فإن مدينة سواكن "توصف بأنها عربية أكثر مما هي بجاويه". المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(٩) أسوان مدينة كبيرة وكورة تقع في آخر صعيد مصر وأول بلاد النوبة، وهي تقع شرقي النيل، وبها الجنادل. وقد اشتهرت البلدة بتمورها وأرطابها بأنواعها المختلفة. وينسب إلى المدينة عدد كبير من العلماء. أنظر: ياقوت، المصدر السابق، ١٩١/١-١٩٢.

(١٠) المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، (تحقيق) محمد زينهم، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٨م، ٥٤٨/١، ٥٥١-٥٥٢؛ محمد صالح ضرار، المرجع السابق، ص ٣٤؛ محمد عوض، المرجع السابق، ص ٣٥.

Michael Mallinson, *Op. cit.,* p. 374; J. Bloss, *Op. cit*., p. 278.

(١١) عيذاب بلدة صغيرة تقع على ضفة بحر القلزم (البحر الأحمر)، وهي مرسى المراكب القادمة من عدن إلى الصعيد. أنظر: ياقوت، المصدر السابق، ١٧١/٤.

(12) Michael Mallinson, *Op. cit.,* p. 374; J. Bloss, *Op. cit*., p. 278; Abdelrahman Ali Mohammed, "Early States on the Nile", in *The Sudan Handbook*, Edited by: John Ryle, Boydell and Brewer Ltd, Woodbridge, 2012, p. 68.

(13) S. Goitein, *India Traders of the Middle Ages (Documents from the Cairo Geniza)*, Brill, Leiden, 2008, P. 258 (marge 2).

(14) Jacke Philips, "Architecture in Suakin", in *Encyclopedia of the History of Science, Technology and Medecine in Non-Western Cultures*, Editor: Helaine Selin, Third Edition, Spriger Science and Business Media Dordrecht, 2016, p. 451.

(15) Michael Mallinson, "Ottoman Suakin 1541–1865: Lost and Found", in *A.C.S. Peacock (ed) The frontiers of the Ottoman World*, Proceedings of the British Academy (156), 2009, P. 481.

(16) Jean-Piere Greenlaw, *Op. cit.*, p. 9; Colin Breen, "Towards an Archaeology of Early Islamic Ports on the Western Red Sea Coast", in J Mari Arch (8), Springer Science and Business Media, New York, 2013, p. 316.

(١٧) Michael Mallinson, *Op. cit*., P. 482; نعوم شقير، المرجع السابق، ١٠٣/١

(١٨) رحلة ابن بطوطة المسماة "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"، (حققه وقدم له) عبد الهادي التازي، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، ١٩٩٧م، ١٠٠/٢.

(19) Katherine Sarah Ashley, *A Protocol for the Conservation of the Built Heritage of Suakin*, A dissertation thesis submitted in partial fulfilment of the requirements for the award of the degree Doctor of Engineering, at Loughborough University, London, 2015, P. 15-16; Michael Mallinson, *Op. cit.,* P. 491.

(٢٠) صفة جزيرة العرب، (تحقيق) محمد بن علي الأكوع الحوالي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ١٩٩٠م، ص ٧٧، ٢٤٧؛ كتاب الجوهرتين العتيقتين المائعتين من الصفراء والبيضاء، (طبع بعناية وتنقيح) يوسف محمد عبد الله، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ٢٠٠٣م، ص ١٢٣.

(٢١) نقلا عن: المقريزي، الخطط، ٥٥٣/١.

(٢٢) معجم البلدان، ٢٧٦/٣.

(٢٣) ابن سعيد، كتاب الجغرافيا، (حققه وعلق عليه) إسماعيل العربي، منشورات الكتاب التجاري للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٠، ص ١١٧؛ أبو الفدا، تقويم البلدان، دار صادر، بيروت، (د.ت)، ص ٣٧١.

(٢٤) نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٤م، ٢٢٩/١.

(٢٥) صبح الأعشى في صناعة الإنشا، (شرح وتعليق) محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت)، ٢٧٤/٥.

(٢٦) الرحلة، ١٠٠/٢.

(٢٧) نفسه.

(٢٨) الرحلة، ١٠٠/٢-١٠١.

(٢٩) الشحر بلدة تقع على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن، وهي بين عدن وعمان. وإليها ينسب العنبر الشحري، كما ينسب إليها جماعة من الفضلاء وأهل العلم. أنظر: ياقوت، المصدر السابق، ٣٢٨/٣.

(٣٠) هناك من يرى عدم صحة الرأي القائل بإن الحدارية المقصود بهم الحضارمة العرب، وإنما تعود أصول الحدارية إلى البجاه. ويؤكدون رأيهم هذا بالقول إنه ليس هناك أحد من المؤرخين مما أشاروا إلى الحدارية- ومنهم المقريزي- قد ربط بينهم وبين الحضارمة. أنظر: محمد عوض، المرجع السابق، ص ٧٤.

(٣١) H. A. Macmichael, *A History of the Arabs in the Sudan*, Vol. 1, Cambridge University Press, London, 1922, p. 346; Michael Mallinson, *Nominating Suakin a World Hiretage Site*, p. 374.

(٣٢) الخطط، ٥٤٨/١.

(٣٣) J. Bloss, *Op. cit*., p. 274.
(٣٤) صبح الأعشى، ٢٧٤/٥.
(٣٥) الرحلة، ١٠١/٢.
(٣٦) الخطط، ٥٤٥/١.

(37) L. Smith, *Archaeological Work at Suakin, Sudan, 2013- Fondation Max van Berchem*, (Accessed 1/9/2022), (https://maxvanberchem.org/en/scientific-activities/projects/archeology/11-archeologie/57-archaeological-work-at-suakin, p. 1); Michael Mallinson, *Op. cit*., p. 373; *The Encyclopedia of Islam*, p. 88.
(38) Colin Breen, *Op. cit*., p. 316.
(٣٩) نقلا عن: كرم الصاوي باز، ممالك النوبة في العصر المملوكي: اضمحلالها وسقوطها وأثره في انتشار الإسلام في سودان وادي النيل، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص ٢٣٨.
(40) Jacke Phillips, *Suakin and China: Exploring China's early links to Africa Conference*, Addis Ababa, Conference Paper, (October 2014), p. 4. (Accessed 3/9/2022).
https://www.researchgate.net/publication/311512647_Suakin_and_China
(41) Richard Lobban, *Historical Dictionary of Ancient and Medieval Nubia*, The Scarecrow Press, Oxford, 2004, p. 376.
(42) Richard Lobban, *Op. cit*., p. 376.
(43) Michael Mallinson, *Ottoman Suakin*, P. 471;
شوقي عبد القوي عثمان، التجارة بين مصر وأفريقيا في عصر سلاطين المماليك، منشورات المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص ٧٢-٧٣.
(44) Michael Mallinson, *Ottoman Suakin*, P. 473; Michael Mallinson, *Nominating Suakin a World Hiretage Site*, p. 376.
(٤٥) كتاب الجغرافيا، ص ١١٦.
(٤٦) المقريزي، المصدر السابق، ٥٦٦/١-٥٦٨؛ أحمد دراج، "عيذاب من الثغور العربية المندثرة"، مقال بمجلة المؤرخ العربي، العدد السابع، صادرة عن الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب، بغداد، ١٩٧٧م، ص ٥٣؛ نعيم زكي فهمي، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب (أواخر العصور الوسطى)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣، ص ١٤٣.
يذكر المقريزي أن عيذاب استمرت لما لا يقل عن مائتي عام (من بضع وخمسين وأربعمائة وحتى بضع وستين وستمائة) تمثل الميناء الأساسي الذي كان يتوجه إليه حجاج مصر للسفر إلى مدينة جدة ومنها إلى مكة، كما أنها كانت خلال هذه الفترة هي الميناء الرئيس لتجارة الهند واليمن والحبشة؛ حيث كان التجار يأتون بسفنهم إلى هذا المرفأ، ثم تحمل البضائع عبر الصحراء إلى قوص، ومنها عبر النيل إلى الفسطاط. ورغم أن الظاهر بيبرس قام عام بضع وستين وستمائة بعمارة الطريق البري عبر سيناء، وأصبحت قوافل الحج تسلك هذا الطريق بدلا من الذهاب إلى عيذاب، إلا أن المدينة لم تفقد دورها التجاري، وظلت البضائع التجارية تحمل منها إلى قوص حتى ٧٦٠هـ، وهو العام الذي شهد تخريب هذه المدينة على يد السلطات المملوكية. أنظر: المصدر نفسه والصفحات نفسها.
(٤٧) J. Bloss, *Op. cit*., p. 274; *The Encyclopedia of Islam*, p. 88;
نعيم زكي فهمي، المرجع السابق، ص ١٤١.
(٤٨) ذكرت كلمة الكارم في بعض الوثائق بمعنى التجار، واستخدمت ايضا بمعنى السلع والبضائع التي يتجر فيها اولئك التجار الذين نسبوا اليها فعرفوا بالكارمية. فالكارمية إذا هم فئة التجار الذين كانت بيدهم تجارة البهار الواردة الى مصر من الهند والشرق الاقصى عن طريق ثغور اليمن دون غيرها من الدول. ثم أطلقت الكلمة

على جميع من مارس التجارة الشرقية عموما والتوابل خصوصاً في مصر. والواقع أنه ليس هناك اتفاق أو رأي جازم في تفسير اسم "الكارم"، وإنما هناك العديد من الآراء والافتراضات التي دارت حول هذا الأمر؛ فهناك من يرجح قول القلقشندي أنه مأخوذ عن "الكانم" وهي منطقة من السودان الغربي تقع في وسط افريقيا، وحرف إلى كارم، وأطلق على تجار البهار المقيمين في مصر ونسبوا اليه. وهناك من يفترض ان اسم الكارم مأخوذ من كلمة "كواريما" الأمهرية وتعني الهيل أو الحبهان، ومن الجائز ايضاً أن ترد التسمية الى العنبر وهو الكارم. وهناك فريق آخر يذهب للقول إن كلمة الكارم تتكون من مقطعين: كار بمعنى حرفة أو تجارة ويم بمعنى البحر، ويكون معناها: حرفة التجارة في البحر. وهناك تفسير آخر لمقطعي الكلمة يذهب إلى أن كار بمعنى سفينة أو مركب، وهي كلمة مصرية الاصل وردت في الكتابة المصرية منذ عصر الدولة الحديثة، ويم بمعنى نهر النيل كما ورد في القرآن الكريم، ويكون الكارم اسما مصريا محليا تعرف به المراكب النيلية، لكنه اتسع ليشمل السفن القادمة في البحر الاحمر. أنظر: السيد عبد العزيز سالم، البحر الأحمر في التاريخ الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٣م، ص ٣٠-٣١؛ محمد عبد الغني الأشقر، تجار التوابل في مصر في العصر المملوكي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩م، ص ٢١-٢٧.

(49) A. Peacock, "Suakin: A Northeast African Port in the Ottoman Empire", in *Northeast African Studies*, Vol. 12, N. 1, Michigan State University Press, 2012, p. 30.

(50) S. Goitein, *Op. cit*., P. 374.

(51) S. Goitein, *Op. cit*., P. 239.

(٥٢) عطية القوصي، تجارة مصر في البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٧٦م، ص ٩٤.

(53) S. Goitein, *Op. cit*., P. 262.

(54) S. Goitein, *Op. cit*., P. 258.

(55) S. Goitein, *Op. cit*., P. 50.

(56) L. Smith, "Archaeology and the Archaeological and Historical Evidence for the Trade of Suakin, Sudan", in *Navigated Spaces, Connected Places*, Proceedings of Red Sea Project V Held at the University of Exeter 16-19 September 2010, Edited by: Dionisius Agius, John Cooper, Athena Trakadas and Chiara Zazzaro, Publishers of British Archaeological Reports, Oxford, 2012, p. 175.

(٥٧) جدة بلد على ساحل بحر اليمن، وهي فرضة مكة، وبينهما وبينها ثلاث ليال، وبينها وبين عدن مسافة شهر. أنظر: ياقوت، المصدر السابق، ٢/١١٤-١١٥.

(58) L. Smith, *Archaeological Work at Suakin,* p. 4-5.

(59) L. Smith, *Archaeology and the Archaeological*, p. 180-181.

(٦٠) زبيد مدينة مشهورة باليمن، أحدثت في أيام المأمون. وينسب إليها جماعة من أهل العلم. أنظر: ياقوت، المصدر السابق، ٣/١٣١.

(61) L. Smith, *Op. cit*., p. 182.

(٦٢) صحار هي قصبة عمان مما يلي الجبل، وهي مدينة طيبة الهواء والخيرات والفواكه، وبناؤها من الآجر والساج، وليس في تلك النواحي مثلها. وبها الأسواق العامرة، كما يوجد بالمدينة الآبار العذبة. أنظر: ياقوت، المصدر السابق، ٣/٣٩٣-٣٩٤.

(63) L. Smith, *Op. cit*., p. 182-183.

(64) L. Smith, *Op. cit*., p. 183-184.

(65) Jacke Phillips, *Op. cit*., p. 6.

(66) L. Smith, *Op. cit*., p. 185; Michael Mallinson, *Nominating Suakin a World Hiretage Site*, p. 376.

(٦٧) يذكر أحمد دراج أن السبب الذي جعل السلطان الأشرف برسباي يقدم على تدمير عيذاب ووقف نشاط مينائها إنما يعود إلى تغير طرق الملاحة في البحر الأحمر في أوائل القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، وإلى حرص مصر على المحافظة على مصالحها التجارية؛ فقد أصبح ميناء جدة هو الميناء الرئيس الذي تبحر إليه السفن القادمة من الهند، وحل بديلا لميناء عدن، الذي لاقى فيه أصحاب تلك السفن معاملة سيئة من قبل السلطات اليمنية. لذلك فقد وضع السلطان برسباي- الراغب في احتكار الضرائب والمكوس التي كانت تجبى في هذا الميناء لنفسه- جدة تحت الحكم المباشر للإدارة المصرية. ولما كان ميناء عيذاب آنذاك لا يزال يمارس بعض الأنشطة التجارية المحلية، وربما كذلك كانت بعض السفن القادمة من الهند ترسو به بدلا من الذهاب إلى جدة، رأى برسباي- وهو المعروف بسياسته الاحتكارية- أن هذا الأمر سيفوت عليه الحصول على بعض المكوس من وراء هذه العمليات التجارية التي كانت تتم في هذا الميناء، لذلك أقدم على تخريب هذه المدينة، ووقف أنشطتها التجارية. أنظر: عيذاب من الثغور العربية المندثرة، ص ٦٤-٦٨.

(68) J. Bloss, *Op. cit*., p. 285; Jean-Piere Greenlaw, *Op. cit.*, p. 13; A. Wink, *AL-Hind, The making of the Indo-Islamic world*, vol. III, Brill, Boston, 2004, p. 177; L. Smith, *Op. cit*., p. 179.

(٦٩) تنسب هذه الأسرة إلى رجل يسمى رسول، يعود في أصوله إلى الغز التركمانيين، كان الخليفة العباسي قد استخدمه عدة مرات كرسول- أي مبعوث- من قبله، فاشتهر باسم رسول. بيد أن المؤرخ اليمني الخزرجي يذهب إلى أن نسب رسول يصل إلى قحطان الجد الأعلى لعرب الجنوب. مهما يكن من أمر فقد تمكن حفيد رسول وهو الملك المنصور عمر (٦٢٦هـ-٦٤٧هـ/١٢٢٩م-١٢٥٠م) من بسط نفوذه على مدينة زبيد الواقعة في المناطق الساحلية واتخذها عاصمة له. كما أنه تمكن من التوسع في منطقة الجبال واستولى على مدينتي صنعاء وتعز من أيدي الأئمة الزيدية. كما ضم إليه مكة وامتدت مملكته من الحجاز إلى حضرموت. إلا أن التفكك والصراعات الداخلية سرعان ما ظهرت بعد وفاة الملك الناصر أحمد عام ٨٢٧هـ/١٤٢٤م، ثم انتهى الأمر بتنحي الملك المسعود- آخر حكام بني رسول- عن الحكم لعجزه عن مواجهة قوة الطاهريين المتصاعدة آنذاك في لحج وعدن. ثم تمكن الطاهريون من فرض حكمهم المطلق داخل اليمن وذلك عام ٨٥٨هـ/١٤٥٤م. أنظر، كليفورد بوزورث، بوزورث (كليفورد)، الأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، (ترجمة) حسين علي اللبودي، عين للدراسات والبحوث الإنسانية، القاهرة، ١٩٩٥م، ص ١١٩-١٢٠.

(٧٠) عدن مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن. وهي مرفأ مراكب الهند، والتجار يأتون إليها لأجل ذلك، فإنها بلدة تجارة. أنظر. ياقوت، المصدر السابق، ٨٩/٤.

(٧١) دهلك جزيرة في بحر اليمن، وهي مرسى بين بلاد اليمن والحبشة، لكنها توصف بأنها ضيقة وجوها حار. أنظر: ياقوت، المصدر السابق، ٤٩٢/٢.

(72) A. Peacock, *Op. cit*., p. 31;

نعيم زكي فهمي، المرجع السابق، ص ١٤١؛ كرم الصاوي باز، "الحركة التجارية في العصر المملوكي وأهميتها كحلقة وصل بين مراكز البحر الأحمر ومدغشقر وجزر القمر"، مقال بمجلة المؤرخ العربي الصادرة عن إتحاد المؤرخين العرب، العدد ١٢، ٢٠٠٤م، ص ١٢٧.

(٧٣) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، (تحقيق) محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م، ١١١/٧.

(74) Michael Mallinson, *Op. cit*., p. 374; Jacke Phillips, *Op. cit*., p. 5; Michael Mallinson, *Ottoman Suakin*, P. 471; نعيم زكي فهمي، المرجع السابق، ص ١٢٥

(75) A. Wink, Op. cit., p. 170; نعيم زكي فهمي، المرجع السابق، ص ١١٧

(76) Michael Mallinson, *Nominating Suakin a World Hiretage Site*, p. 374-375.

(77) A. Peacock, *Op. cit*., p. 32.

(78) Tome Pires, *The suma oriental of Tome Pires: un account of the East, from the Red Sea to Japan, Written in Malacca and India in 1512-1515, and the book of Francisco Prodrigues*, Edited by Armando Cartesao, Vol. 1, London, 1944, p. 11.

(٧٩) جزيرة كمران تقع قبالة زبيد باليمن، "وهي حصن لمن ملك يماني تهامة". أنظر: ياقوت، المصدر السابق، ١٣٩/٢.

(٨٠) القصير بلدة تقع بالقرب من عيذاب، بينها وبين قوص قصبة الصعيد مسافة خمسة أيام، وبينها وبين عيذاب ثمانية أيام. والقصير هي مرفأ سفن اليمن. أنظر: ياقوت، المصدر السابق، ٣٦٧/٤.

(81) Tome Pires, *Op. cit*., p. 17.

(82) Tome Pires, *Op. cit*., p. 43; A. Peacock, *Op. cit*., p. 32.

(83) Salih Ozbaran, "An Ottoman Report on the Red Sea and the Portuguese in the Indian Ocean (1525)," in *The Ottoman Response to European Expansion: Studies on Ottoman-Portuguese Relations in the Indian Ocean and Ottoman Administration in the Arab Lands during the Sixteenth Century*, Isis Press, Istanbul, 1994, p. ١٠٨.

(84) Salih Ozbaran, *Op. cit*., p. 104.

(85) R. Whiteway, *The Rise of Portuguese Power in India, 1497-1550*, Westminster, 1899, p. 271.

(86) L. Smith, *Op. cit*., p. 179; Brian Kennedy-Cooke, 'The Red Sea coast in 1540', in *Sudan Notes and Records*, Vol. 16, Published by the Philosophical Society of the Sudan, Khartoum, 1933, p. 152-153; A. Peacock, *Op. cit*., p. 34; R. Whiteway, *Op. cit*., p. 271-272.

(87) Michael Mallinson, *Ottoman Suakin*, P. 481-482; Jean-Piere Greenlaw, *Op. cit*., p. 9; Brian Kennedy-Cooke, *Op. cit*., p. 152.

(88) Michael Mallinson, *Nominating Suakin a World Hiretage Site*, p. 374.

(89) J. Ghistele, Voyage en Egypte (1482-1483), traduction et notes de Renée Bauwens-Préaux, IFAO, Le Caire, 1976, p. 183.

(90) D. Barbosa, A Description of the coasts of East Africa and Malabar in the beginning of the sixteenth century, Notes and a preface by Baron Henry Stanley, London, 1866, p. 18; Tome Pires, Op. cit., p. 8; Marina Tolmachevap, "Navigation in Africa", in *Encyclopedia of the History of Science, Technology and Medecine in Non-Western Cultures*, Editor: Helaine Selin, Spriger Science and Business Media Dordrecht, 2016, p. 3333.

(91) J. Bloss, *Op. cit*., p. 280; Colin Breen, "Excavations at the medieval Red Sea port of Suakin, Sudan", in *Azania: Archaeological Research in Africa*, 46, N. 2, Publisher: Routledge, 2011, p. 208; ابن سعيد، المصدر السابق، ص ١١٦

(٩٢) الخطط، ٥٤٧/١.

(93) Paul Lane, "Maritime and Shipwreck Archaeology in the Western Indian Ocean and Southern Red Sea: An Overview of Past and Current Research", in *J Mari Arch*, 7:9–41, Springer Science et Business Media, 2012, P. 28.

(٩٤) J. Bloss, *Op. cit*., p. 285; Richard Lobban, *Op. cit*., p. 376; Shadia Taha, "The value of memory: Suakin's cultural heritage - significant for whom?", in *International Journal of Intangible Heritage*, Vol. 9, The National Folk Museum of Korea, 2014, p. 60; Colin Breen, *Op. cit*., p. 209; Michael Mallinson, *Op. cit*., p. 373.

(95) Colin Breen, *Towards an Archaeology of Early Islamic Ports*, p. 320.

(٩٦) هناك إشارات إلى أنه في عام ١١٨٩م قام السلطان صلاح الدين الأيوبي بمنح بعض دور العبادة في القدس وبيت لحم للأثيوبيين. ومنذ ذلك الوقت بدأ التدفق المنتظم للحجاج الإثيوبيين إلى القدس لزيارة "الأرض المقدسة". أنظر:

Taddesse Tamrat, "Ethiopia, the Red Sea and the Horn", in *The Cambridge History of Africa*, Vol 3 (From 1050 to 1600), General Editors: J. D. Fage and Roland Oliver, Cambridge University Press, 2008, p. 178.

(97) A. Peacock, *Op. cit*., p. 31-32; Colin Breen, *Op. cit*., p. 316; Shadia Taha, *Op. cit*., p. 60.

(98) Alain Gascon, "Les espaces sacrés comme lieu de confluence religieuse en Ethiopie", in *Cahiers d'etudes africaines*, Vol. 32, N. 128, 1992, p. 690.

(99) Alain Gascon, *Op. cit*., p. 690 (marge 5).

(100) Brian Kennedy-Cooke, *Op. cit*., p. 152.

(101) Ivan Hrbek, "Egypt, Nubia and the Eastern Deserts", in *The Cambridge History of Africa*, Vol 3 (From 1050 to 1600), General Editors: J. D. Fage and Roland Oliver, Cambridge University Press, 2008, p. 81.

(١٠٢) ابن فضل الله العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، (تحقيق) محمد حسبن شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨م، ص ٢٤٢-٢٤٤.

(103) A. Peacock, *Op. cit*., p. 31.

وفقًا لرواية الرحالة فان جيستل، فإن سواكن ظل يحكمها أمير من السكان الأصليين، "بحيث إنه كان يجب على جميع السفن التي تصل إلى هناك وتريد الذهاب إلى الحبشة أو الهند أو النوبة- حتى لو كانت تخص السلطان (المملوكي)- آن تقوم بإنزال الشراع كعلامة من علامات الطاعة لصاحب المكان". أنظر:

Ghistele, *Op. cit*., p. 183.

(١٠٤) هو السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس العلائي البندقداري الصالحي (٦٢٥-٦٧٦هـ/١٢٢٨-١٢٧٧م)، مولده بأرض القفجاق، وأسر قبيع في سيواس، فاشتراه الأمير علاء الدين البندقدار، ثم انتقل إلى خدمة الملك الصالح نجم الدين أيوب وأصبح من خواصه. كان له دور كبير في الانتصار الذي حققه المماليك على عهد السلطان قطز ضد المغول في معركة عين جالوت. تولى بيبرس أمور السلطنة عام ٦٥٨هـ بعد أن اشترك مع عدد من الأمراء في قتل السلطان قطز. عرف الظاهر بيبرس بشجاعته ومباشرته للحروب بنفسه، وكانت له حروب كثيرة مع الصليبيين تمكن خلالها من انتزاع العديد من مدنهم وقلاعهم، كما أنه قام بفتح بلاد النوبة ودنقلة. وفي عهده تم إحياء الخلافة العباسية مرة أخرى في القاهرة بعد أن كان المغول قد قضوا عليها في بغداد. هذا فضلا عن أنه قام ببناء العديد من المنشآت. أنظر: الزركلي، المرجع السابق، ٧٩/٢.

(١٠٥) المقريزي، السلوك، ٥/٢؛ ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، (تحقيق) كامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١٠، ١٥٢/٣٠؛ أحمد دراج، المرجع السابق، ص ٦٢.

(١٠٦) قوص مدينة كبيرة عظيمة تقع شرقي النيل، وهي قصبة صعيد مصر، وبينها وبين الفسطاط مسيرة اثني عشر يوما. أهلها أصحاب ثروة واسعة، وهي محط التجار القادمين من عدن. أنظر: ياقوت، المصدر السابق، ٤١٣/٤.

(١٠٧) إخميم بلد قديم بصعيد مصر يقع على شاطيء النيل. وبهذه المدينة عجائب كثيرة قديمة مثل البرابي. أنظر: ياقوت، المصدر السابق، ١٢٣/١-١٢٤.

(١٠٨) المقريزي، المصدر السابق، ٣٦/٢؛ ابن فضل الله العمري، المصدر السابق، ١٥٢/٣٠؛ العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان (عصر سلاطين المماليك)، (حققه) محمد محمد أمين، مكتبة دار الكتب والوثائق

القومية، القاهرة، ٢٠١٠م، ٤٢٨/١؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، (قدم له وعلق عليه) محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م، ١٢٥/٧-١٢٦.

(١٠٩) محمد صالح ضرار، المرجع السابق، ص ٣٦-٣٧.

(١١٠) المقريزي، المصدر السابق، ٤٣/٢؛ J. Bloss, *Op. cit*., p. 281

(111) J. Bloss, *Op. cit*., p. 281.

(١١٢) هو السلطان المنصور قلاوون الألفي، أول ملوك الأسرة القلاوونية بمصر والشام، والسابع من ملوك الترك وأولادهم بمصر. وهو مملوك من أصل قبجاقي، أعتقه الملك الصالح نجم الدين أيوب سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م. وبعد وفاة الظاهر بيبرس قام قلاوون بأمور الدولة في عهد العادل سلامش بن الظاهر بيبرس، فكان يخطب له وللعادل على منابر مصر، وضربت السكة باسمهما. ثم خلع العادل وتولي السلطة منفردا سنة ٦٧٨هـ/١٢٧٩م. وكان قلاوون من أجل سلاطين المماليك قدرا وأكثرهم شجاعة، وفي أيامه كثرت الفتوحات وأبطلت المظالم. وقد بلغت مدة حكمه إحدى عشرة سنة وثلاثة أشهر. أنظر: الزركلي، المرجع السابق، ٢٠٣/٥.

(١١٣) المقريزي، المصدر السابق، ١٥٢/٢؛ ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، (تحقيق) قسطنطين زريق، المجلد السابع (أحداث ٦٧٢-٦٨٢)، المطبعة الأميركانية، بيروت، ١٩٤٢م، ٢٢٦/٧.

(١١٤) هو السلطان محمد بن قلاوون بن عبد الله الصالحي (٦٨٤-٧٤١هـ/١٢٨٥-١٣٤١م)، من كبار ملوك الدولة المملوكية، له العديد من الآثار العمرانية الضخمة. تولى أمور السلطنة عام ٦٩٣هـ وهو صبي، وخلع منها لحداثة سنه سنة ٦٩٤هـ وأرسل إلى الكرك. ثم أعيد للسلطنة بمصر عام ٦٩٨هـ فأقام في القلعة كالمحجور عليه، بينما كانت الأمور في يد الأمير بيبرس الجاشنكير ونائب السلطة الأمير سلار. وفي عام ٧٠٩هـ عاد الناصر إلى عرشه منفردا بعدما قام بقتل بيبرس الجاشنكير. ومما يحسب له في حكمه قيامه بإبطال كثيرا من المكوس المجحفة. وعرف الناصر بعدله وكرمه ووقاره. أنظر: الزركلي، المرجع السابق، ١١/٧.

(١١٥) المقريزي، المصدر السابق، ٥١٦/٢؛ ابن فضل الله العمري، المصدر السابق، ١٨٢/٣٢-١٨٤.

(١١٦) ابن فضل الله العمري، المصدر السابق، ١٨٤/٣٢.

يذكر محمد ضرار أن أمير سواكن علم الدين السمعاني الأرتيقي كان له يد فيما حدث للتجار ولمبعوثي ملك اليمن، لذلك فإن قائد الحملة علاء الدين مغلطاي قام بعزله من منصبه وأعاد للحكم مرة أخرى أحد أفراد قبيلة الحدارية. أنظر: تاريخ سواكن والبحر الأحمر، ص ٣٩.

(١١٧) القلقشندي، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، (عني بنشره وتحقيق) علي الخاقاني، مطبعة النجاح، بغداد، ١٩٥٨م، ص ١٢١.

(١١٨) هو السلطان شعبان بن حسين بن الملك الناصرمحمد بن قلاوون (٧٥٤-٧٧٨هـ/١٣٥٣-١٣٧٧م)، تولى السلطنة بعد خلع ابن عمه محمد بن حاجي سنة ٧٦٤هـ، وكانت أمور الدولة أثناء حكمه في يد أتابك العسكر الأمير يلبغا. أغار القبارصة في عهده على مدينة الإسكندرية سنة ٧٦٧هـ وقاموا بنهبها. عرف بلينه ومحبته للناس وللعلماء، وكان كثير البر والصدقات، كما قام ببناء العديد من المنشآت. خرج عليه الأمراء سنة ٧٧٨هـ وانتهى الأمر بموته مخنوقا. أنظر: الزركلي، المرجع السابق، ١٦٣/٣-١٦٤.

(١١٩) الحجوبية هي وظيفة مرموقة، وصاحبها كان منوطا به الحكم والإنصاف ما بين الأمراء والجند، إما مستقلا وإما بمراجعة النائب. كما أن "إليه تقديم من يعرض ومن يرد، وعرض الجند وما ناسب ذلك". وقد جرت العادة أن يكون هناك خمسة حجاب، أعلاهم درجة هو حاجب الحجاب الذي كان يختار من مقدمي الألوف، وهو "القائم مقام النائب في كثير من الأمور". أنظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ١٩/٤.

(١٢٠) أمراء المئين مقدمو الألوف: كل واحد منهم له التقدمة على ألف فارس ممن دونه من الأمراء. وهم أعلى مراتب الأمراء في الدولة المملوكية، ومنهم يكون أكابر أرباب الوظائف والنواب. أنظر: القلقشندي، المصدر السابق، ١٤/٤.

(١٢١) أمير عشرة: مرتبة عسكرية يكون في خدمة صاحبها عشرة فوارس ومن هذه الطبقة يكون صغار الولاة ونحوهم من أرباب الوظائف. أنظر: القلقشندي، المصدر السابق، ١٥/٤، ٢٧.

(١٢٢) الطبلخاناه: مرتبة عسكرية، يلي صاحبها أمير مائة مقدم ألف في الدرجة، وسمي طبلخاناه لأحقيته في ضرب الطبول على بابه، ويكون في خدمته ما بين ٤٠-٨٠ فارسا. أنظر: القلقشندي، المصدر السابق، ١٥/٤، ١٩.

(١٢٣) المقريزي، المصدر السابق، ٤/٢٨٥-٢٨٧؛ ابن اياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، (تحقيق) محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٣-١٩٨٤، ج١، ق٢، ص ٢٩-٣١.

(١٢٤) ينتمي المماليك البرجية (٧٨٤- ٩٢٣هـ/ ١٣٨٢- ١٥١٧م) إلى العنصر الجركسي الذي كان يعيش في بلاد الكُرْج، وهي المنطقةُ الواقعة شمال أرمينية بين البحر الأسود وبحر الخزر، وتُعرف اليوم بجمهورية جورجيا في منطقة القوقاز. وقد كان عدد الرقيق الجراكسة كثيراً في الأسواقِ خلال النصف الثاني من القرنِ السابع الهجري؛ ويعود هذا الأمر إلى كثرة السَّبي منهم بسبب تعرضهم لهجمات مغول فارس والقبجاق، مما أدى إلى انخفاض أسعارهم، إلى جانب ما يتصفون به من جمال الشكل والقوة والشجاعة. تلك الصفات والمميزات جعلت السلطان المنصور سيف الدين قلاوون يعمد إلى الاستكثار منهم، والاعتماد عليهم، متخلياً عن العناصر التركية والتترية والتركمانية وهي الأجناس التي كان ينتمي إليها مماليك عصره. وقد قام السلطان قلاوون بإسكان هؤلاء المماليك في أبراج القلعة، ولذا عرفوا بالبرجية تمييزًا لهم عن المماليك الأتراك الذين أُسكنوا في قلعة الروضة وعرفوا بالبحرية. أنظر: سعيد عاشور، الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، دار النهضة العربية–القاهرة، ١٩٩٦م، ص ٢٥٩-٢٦٠.

(١٢٥) ابن اياس، المصدر السابق، ٣/٢٥٩.

(١٢٦) ابن اياس، المصدر السابق، ٤/٨٠.

(١٢٧) شارل ديل، البندقية جمهورية أرستقراطية، (تعريب) أحمد عزت عبد الكريم وتوفيق إسكندر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٤٨م، ص ١٤٩؛ سونيا هاو، في طلب التوابل، (ترجمة) محمد عزيز رفعت، مكتبة ومطبعة نهضة مصر، القاهرة، ١٩٥٧م، ص ٢١٥.

(128) Rui Loureiro, "The ports of the Red Sea and the Gulf of Aden according to 16th century Portuguese iconographic sources", in *Orientierungen Themenheft*, 2013, p. 128.

(129) A. Kammerer, *La Mer Rouge, l'Abyssinie et l'Arabie depuis l'antiquité*, IFAO, Le Caire, 1928-1952, t. I, p. 295 ; S. Labib, "Les marchands Karimis en Orient et sur l'océan Indien", in *Sociétés et compagnies de commerce en Orient et dans l'océan Indien*, présentés par Michel Mollat, Paris, 1970, p. 214 ; G. Bouchon, *Vasco de Gama*, Fayard, 1997, p. 50.

(١٣٠) *Chroniques de Ruy de Pina, Fra João Alvares, Damião de Goes, João de Barros, Garcia de Resende, Castanheda*, in *Les grands navigateurs et colons portugais du XV^e siècle et du XVI^e siècle*, Tom. II, Anthologie des écrits de l'époque par Virginia de Castro E Almeida, éd. Ducharte, Paris, 1934, p. 130-131 ; J. Doresse, *L'empire du Prêtre-Jean*, Tome II : "L'Ethiopie médiévale", éd. Plon, Pars, 1957, p. 242-243; Ch. Nowell, *Histoire du Portugal*, traduit de l'anglais par H. Del Medico, Paris, 1953, p. 72; R. Whiteway, *Op. cit*., p. 54.

(١٣١) هو السلطان قانصوه بن عبد الله الظاهري (نسبة إلى الظاهر خشقدم) الأشرفي (نسبة إلى الأشرف قايتباي) الغوري أبو النصر (٨٥٠-٩٢٢هـ/١٤٤٦-١٥١٦م)، من سلاطين مصر الجراكسة. خدم السلاطين وتولى منصب حجابة الحجاب بحلب قبل أن يبايع بالسلطنة بقلعة الجبل سنة ٩٠٥هـ. قام ببناء العديد من المنشآت والآثار، وكان ملما بالموسيقى والأدب. عرف بشجاعته ودهائه وفطنته. وقد كانت نهايته على يد السلطان العثماني سليم الأول، الذي ألحق به الهزيمة في معركة مرج دابق بالشام، ويقال إنه مات قهرا من تلك الهزيمة. أنظر: الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ٢٠٠٢م، ٥/١٨٧.

(١٣٢) ابن اياس، المصدر السابق، ٤/٩٦؛

V. Godinho, *L'économie de l'empire portugais*, p. 737 ; D. Agius, *Classic ships of Islam from Mesopotamia to the Indian Ocean*, Brill, 2008, p. 258.

(١٣٣) نعيم زكي فهمي، المرجع السابق، ص ١٤٥.
(١٣٤) A. Peacock, *Op. cit*., p. 32.

ملحق (١)

خريطة توضيحية لموقع سواكن وأهم الموانيء التجارية على ساحل البحر الأحمر

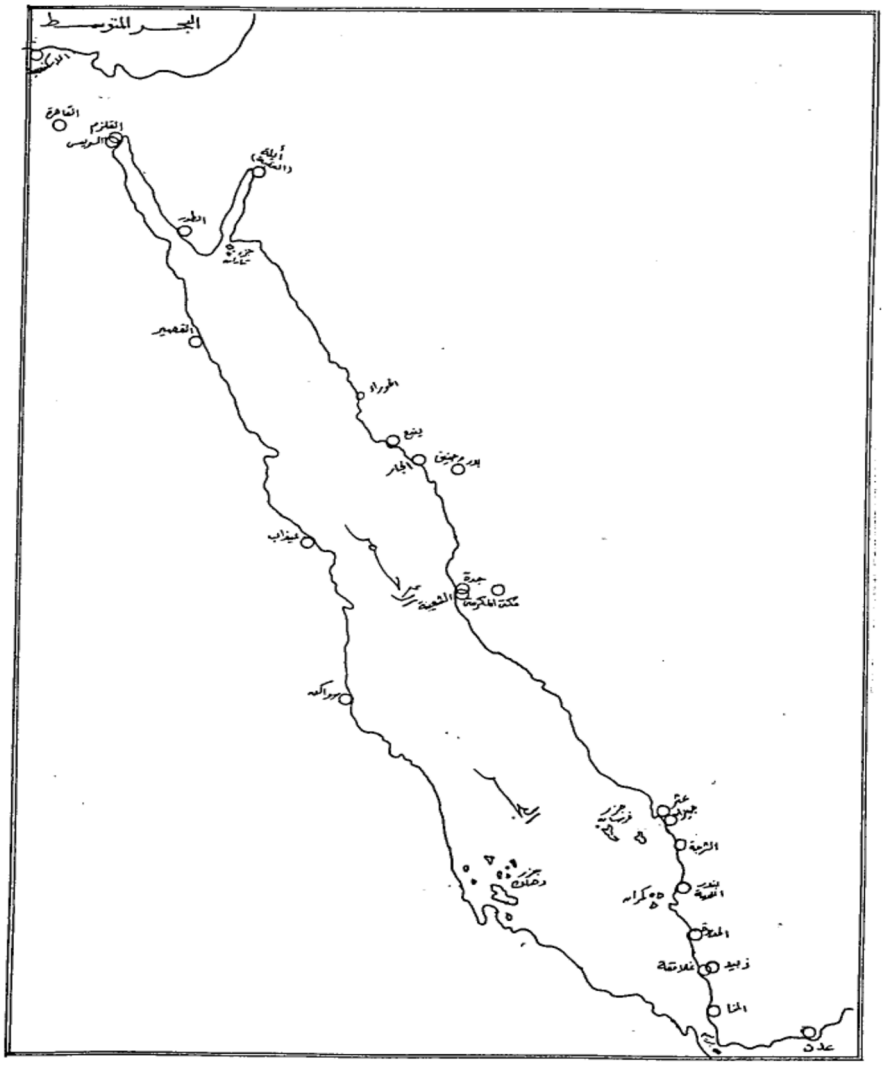

ملحق ٢

محاصرة الأسطول البرتغالي لجزيرة سواكن

(كما وردت في كتاب جواو دي كاسترو)

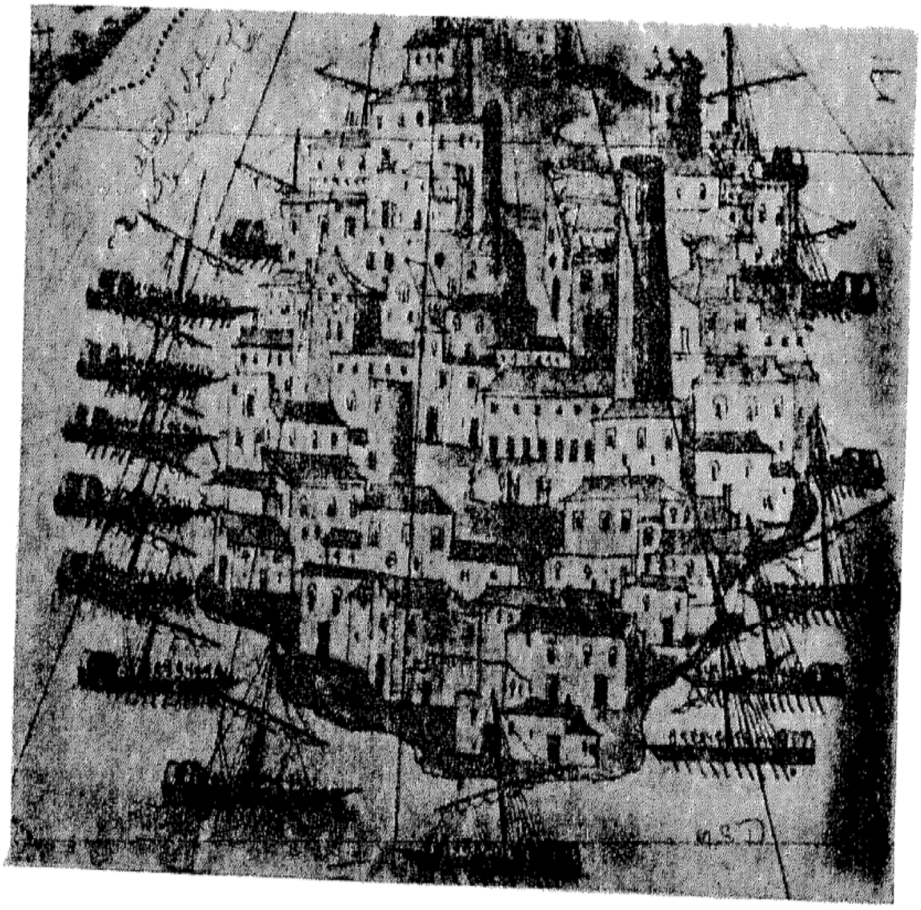

نقلا عن:

محمد صالح ضرار، تاريخ سواكن والبحر الأحمر

مصادر ومراجع البحث

أولا: المصادر العربية:

ابن اياس (محمد بن أحمد)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، (تحقيق) محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٣-١٩٨٤.

ابن بطوطة (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي)، رحلة ابن بطوطة المسماة "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"، (حققه وقدم له) عبد الهادي التازي، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، ١٩٩٧م.

ابن تغري بردي (جمال الدين أبو المحاسن يوسف)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، (تقديم) محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م.

ابن سعيد المغربي (أبو الحسن علي بن موسى)، كتاب الجغرافيا، (حققه وعلق عليه) إسماعيل العربي، منشورات الكتاب التجاري للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٠.

العيني (بدر الدين محمود)، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان (عصر سلاطين المماليك)، (حققه) محمد محمد أمين، مكتبة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠١٠م.

أبو الفدا (عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر)، تقويم البلدان، دار صادر، بيروت، (د.ت).

ابن الفرات، (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم الحنفي المصري)، تاريخ ابن الفرات، (تحقيق) قسطنطين زريق، المجلد السابع (أحداث ٦٧٢-٦٨٢)، المطبعة الأميركانية، بيروت، ١٩٤٢م.

ابن فضل الله العمري (شهاب الدين أحمد بن يحيى)، التعريف بالمصطلح الشريف، (تحقيق) محمد حسبن شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨م.

------، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، (تحقيق) كامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١٠.

القلقشندي (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن علي)، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، (شرح وتعليق) محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت).

------، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، (عني بنشره وتحقيق) علي الخاقاني، مطبعة النجاح، بغداد، ١٩٥٨م.

المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي)، السلوك لمعرفة دول الملوك، (تحقيق) محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م.

------، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، (تحقيق) محمد زينهم، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٨م.

النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب)، نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٤م.

الهمداني (أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب)، صفة جزيرة العرب، (تحقيق) محمد بن علي الأكوع الحوالي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ١٩٩٠م.

------، كتاب الجوهرتين العتيقتين المائعتين من الصفراء والبيضاء، (طبع بعناية وتنقيح) يوسف محمد عبد الله، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ٢٠٠٣م.

ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبد الله)، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م.

ثانيا: المراجع العربية والمعربة:

الأشقر (محمد عبد الغني)، تجار التوابل في مصر في العصر المملوكي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩م.

باز (كرم الصاوي)، "الحركة التجارية في العصر المملوكي وأهميتها كحلقة وصل بين مراكز البحر الأحمر ومدغشقر وجزر القمر"، مقال بمجلة المؤرخ العربي الصادرة عن إتحاد المؤرخين العرب، العدد ١٢، ٢٠٠٤م، (الصفحات ١١٩-١٥٨).

------، ممالك النوبة في العصر المملوكي: اضمحلالها وسقوطها وأثره في انتشار الإسلام في سودان وادي النيل، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ٢٠٠٦م.

بوزورث (كليفورد)، الأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، (ترجمة) حسين علي اللبودي، عين للدراسات والبحوث الإنسانية، القاهرة، ١٩٩٥م.
حسين (عبد الله)، السودان من التاريخ القديم إلى رحلة البعثة المصرية، الجزء الأول، مؤسسة هنداوي للنشر، القاهرة، ٢٠١٣م.
دراج (أحمد)، "عيذاب من الثغور العربية المندثرة"، مقال بمجلة المؤرخ العربي، العدد السابع، صادرة عن الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب، بغداد، ١٩٧٧م، (الصفحات ٥٣-٧٠).
ديل (شارل)، البندقية جمهورية أرستقراطية، (تعريب) أحمد عزت عبد الكريم وتوفيق إسكندر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٤٨م.
الزركلي (خير الدين)، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ٢٠٠٢م.
سالم (السيد عبد العزيز)، البحر الأحمر في التاريخ الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٣م.
شقير (نعوم)، تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته، مطبعة المعارف بمصر، ١٩٠٣م.
الصادق (صلاح عمر)، دراسات سودانية في الآثار والفلكولور والتاريخ، دار عزة للنشر والتوزيع، الخرطوم، ٢٠٠٦م.
ضرار (محمد صالح)، تاريخ سواكن والبحر الأحمر، الدار السودانية للكتب، الخرطوم، ١٩٨١م.
عاشور (سعيد عبد الفتاح)، الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، دار النهضة العربية–القاهرة، ١٩٩٦م.
عثمان (شوقي عبد القوي)، التجارة بين مصر وأفريقيا في عصر سلاطين المماليك، منشورات المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٢م.
فهمي (نعيم زكي)، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب (أواخر العصور الوسطى)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣م.
القوصي (عطية)، تجارة مصر في البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٧٦م.
محمد (محمد عوض)، السودان الشمالي سكانه وقبائله، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥١م.
هاو (سونيا)، في طلب التوابل، (ترجمة) محمد عزيز رفعت، مكتبة ومطبعة نهضة مصر، القاهرة، ١٩٥٧م.

ثالثا: المصادر والمراجع الغربية:

Agius (Dionisius), *Classic ships of Islam from Mesopotamia to the Indian Ocean*, Brill, Boston, 2008.
Ashley (Katherine Sarah), *A Protocol for the Conservation of the Built Heritage of Suakin*, A dissertation thesis submitted in partial fulfilment of the requirements for the award of the degree Doctor of Engineering, at Loughborough University, London, 2015.
Barbosa (Duarte), *A Description of the coasts of East Africa and Malabar in the beginning of the sixteenth century*, Notes and a preface by Baron Henry Stanley, London, 1866.
Bloss (J.), "The Story of Suakin", in *Sudan Notes and Records*, Part II, Vol. XIX, Published by University of Khartoum, 1936, pp. 271-300.
Bouchon (Geneviève), *Vasco de Gama*, Fayard, 1997.
Breen (Colin), "Excavations at the medieval Red Sea port of Suakin, Sudan", in *Azania: Archaeological Research in Africa*, 46, N. 2, Publisher: Routledge, 2011, pp. 205-220.

----------, "Towards an Archaeology of Early Islamic Ports on the Western Red Sea Coast", in *J Mari Arch (8),* Springer Science and Business Media, New York, 2013, pp. 311-323.
Doresse (J.), *L'empire du Prêtre-Jean*, Tome II: "L'Ethiopie médiévale", éd. Plon, Pars, 1957.
Gascon (Alain), "Les espaces sacrés comme lieu de confluence religieuse en Ethiopie", in *Cahiers d'etudes africaines*, Vol. 32, N. 128, 1992, pp. 689-704.
Ghistele (Joos Van), *Voyage en Egypte (1482-1483),* traduction et notes de Renée Bauwens-Préaux, IFAO, Le Caire, 1976.
***Chroniques de Ruy de Pina**, Fra João Alvares, Damião de Goes, João de Barros, Garcia de Resende, Castanheda*, in Les grands navigateurs et colons portugais du XVe siècle et du XVIe siècle, Tom. II, Anthologie des écrits de l'époque par Virginia de Castro E Almeida, éd. Ducharte, Paris, 1934.
Godinho (Vitorino Magalhäes), L'économie de l'empire portugais aux XVe et XVIe siècles, Paris, 1969.
Goitein (S.), *India Traders of the Middle Ages (Documents from the Cairo Geniza)*, Brill, Leiden, 2008.
Greenlaw (Jean-Piere), *The Coral Buildings of Suakin*, Oriel Press Ltd, Stocksfield, 1976.
Hrbek (Ivan), "Egypt, Nubia and the Eastern Deserts", in *The Cambridge History of Africa*, Vol 3 (From 1050 to 1600), General Editors: J. D. Fage and Roland Oliver, Cambridge University Press, 2008, pp. 10-97.
Kammerer (Albert), La Mer Rouge, l'Abyssinie et l'Arabie depuis l'antiquité, IFAO, Le Caire, 1928-1952.
Kennedy-Cooke (Brian), 'The Red Sea coast in 1540', in *Sudan Notes and Records*, Vol. 16, Published by the Philosophical Society of the Sudan, Khartoum, 1933, pp. 151-159.
Labib (S.), "Les marchands Karimis en Orient et sur l'océan Indien", in *Sociétés et compagnies de commerce en Orient et dans l'océan Indien*, présentés par Michel Mollat, Paris, 1970.
Lane (Paul), "Maritime and Shipwreck Archaeology in the Western Indian Ocean and Southern Red Sea: An Overview of Past and Current Research", in *J Mari Arch*, 7:9–41, Springer Science et Business Media, 2012, pp. 9-41.

Lobban (Richard), *Historical Dictionary of Ancient and Medieval Nubia*, The Scarecrow Press, Oxford, 2004.
Loureiro (Rui), "The ports of the Red Sea and the Gulf of Aden according to 16th century Portuguese iconographic sources", in *Orientierungen Themenheft*, 2013, pp. 126-142.
Macmichael (H. A.), *A History of the Arabs in the Sudan*, Vol. 1, Cambridge University Press, London, 1922.

Mallinson (Michael), "Nominating Suakin a World Hiretage Site", in *The History of the Peoples of the Eastern Desert*, Edited by: Hans Bernard and Kim Duistermaat, University of California, 2012, pp. 373-380.

----------, "Ottoman Suakin 1541–1865: Lost and Found", in *A.C.S. Peacock (ed) The frontiers of the Ottoman World*, Proceedings of the British Academy (156), 2009, pp. 469-492.

Mohammed (Abdelrahman Ali), and Welsby (Derek), "Early States on the Nile", in *The Sudan Handbook*, Edited by: John Ryle, Boydell and Brewer Ltd, Woodbridge, 2012, pp. 58-69.

Noël (O.), *Histoire du commerce du monde depuis les temps les plus reculés*, Paris, 1891.

Nowell (Ch.), *Histoire du Portugal*, traduit de l'anglais par H. Del Medico, Paris, 1953.

Ozbaran (Salih), "An Ottoman Report on the Red Sea and the Portuguese in the Indian Ocean (1525)," in *The Ottoman Response to European Expansion: Studies on Ottoman-Portuguese Relations in the Indian Ocean and Ottoman Administration in the Arab Lands during the Sixteenth Century*, Isis Press, Istanbul, 1994, pp. 99-109.

Peacock (A.), "Suakin: A Northeast African Port in the Ottoman Empire", in *Northeast African Studies*, Vol. 12, N. 1, Michigan State University Press, 2012, pp. 29-50.

Philips (Jacke), "Architecture in Suakin", in *Encyclopedia of the History of Science, Technology and Medecine in Non-Western Cultures*, Editor: Helaine Selin, Third Edition, Spriger Science and Business Media Dordrecht, 2016, pp. 451-457.

----------, *Suakin and China: Exploring China's early links to Africa Conference*, Addis Ababa, Conference Paper, (October 2014), (Accessed 3/9/2022). https://www.researchgate.net/publication/311512647_Suakin_and_China

Smith (Laurence), *Archaeological Work at Suakin,* Sudan, 2013- Fondation Max van Berchem, (Accessed 1/9/2022). https://maxvanberchem.org/en/scientific-activities/projects/archeology/11-archeologie/57-archaeological-work-at-suakin

----------, "Archaeology and the Archaeological and Historical Evidence for the Trade of Suakin, Sudan", in *Navigated Spaces, Connected Places*, Proceedings of Red Sea Project V Held at the University of Exeter 16-19 September 2010, Edited by: Dionisius Agius, John Cooper, Athena Trakadas and Chiara Zazzaro, Publishers of British Archaeological Reports, Oxford, 2012, pp. 173-186.

Taha (Shadia), "The value of memory: Suakin's cultural heritage-significant for whom?", in *International Journal of Intangible Heritage*, Vol. 9, The National Folk Museum of Korea, 2014, pp. 56-67.

Tamrat (Taddesse), "Ethiopia, the Red Sea and the Horn", in *The Cambridge History of Africa*, Vol 3 (From 1050 to 1600), General Editors: J. D. Fage and Roland Oliver, Cambridge University Press, 2008, pp. 98-182.

The Encyclopedia of Islam (New Edition), Edited by: C. Bosworth (and others), Vol. IX, LeidenK Brill, 1997.

Tolmachevap (Marina), "Navigation in Africa", in *Encyclopedia of the History of Science, Technology and Medecine in Non-Western Cultures*, Editor: Helaine Selin, Third Edition, Spriger Science and Business Media Dordrecht, 2016, pp. 3331-3336.

Whiteway (R. S.), *The Rise of Portuguese Power in India, 1497-1550*, Westminster, 1899.

Wink (André), *AL-Hind, The making of the Indo-Islamic world*, Vol. III, Brill, Boston, 2004.